

مكتوب أحمد العليّة

بقلم:

سيدنا مرزا غلام أحمد القادياني
الإمام المهدي والمسيح الموعود العليّة

الشركة الإسلامية المحدودة

اسم الكتاب: مكتوب أحمد عليه السلام

الطبعة الحديثة: ١٤٢٨ هـ / ٢٠٠٧ م

Maktūb-o-Aḥmad

By: Ḥaḍrat Mirzā Ghulām Aḥmad (Peace be on him), the Promised Messiah and Mahdi, Founder of the Aḥmadiyyah Muslim Jamā'at

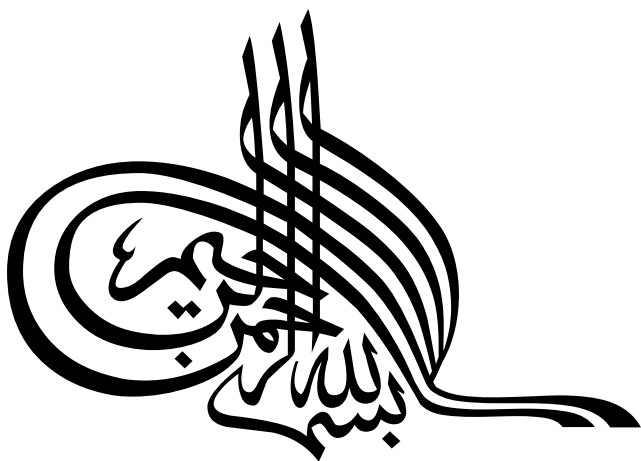
© Al-Shirkatul Islamiyyah

First Published in UK in 2007

By: Al-Shirkatul Islamiyyah
Islamabad
Sheephatch Lane
Tilford, Surrey GU10 2AQ
United Kingdom

Printed in UK at:
Raqeem Press
Islamabad

ISBN: 185372 840 3



بسم الله الرحمن الرحيم نحمده ونصلي على رسوله الكريم

مقدمة الناشر

هذا المؤلف جزء عربي من كتاب ألفه سيدنا المسيح الموعود والإمام المهدي عليه السلام باللغتين العربية والأردية باسم "أنجم آتم"، وذلك بعد هلاك القسيس "عبد الله آتم" إذ لقي هذا الشقي المرتد عن الإسلام قدره المحتوم بتاريخ ٢٧ يوليو/تموز ١٨٩٦م وذلك طبقاً لنبوءة تنبأ بها حضرته عليه السلام في اليوم الأخير من أيام مناظرة جرت بينهما. لقد بين سيدنا أحمد عليه السلام تفصيل هذه النبوءة بالكلمات التالية:

"حين تضرعت إلى الله تعالى وابتهلت ودعوت في حضرته كثيرا ليحكم في هذا الأمر، وقلت إننا عباد ضعفاء لا نستطيع فعل شيء دون حكمك، فما كشف علي ليلة البارحة هو أن الله تعالى قد أعطاني هذه الآية كبشارة أن الذي يصر على الكذب متعمدا من بين فريقَي المناظرة ويهجر الإله الحق سوف يُلقى في الهاوية في غضون خمسة عشر شهرا من الآن، وذلك بحساب شهر واحد مقابل كل يوم من أيام المناظرة.* وسوف ينال خزيا كبيرا إن لم يرجع إلى الحق. وأما الفريقُ المتمسك بأهداب الصدق والمؤمنُ بالإله الحق فسوف ينال إكراما وعزة."

ففي هذا الكتاب القيم ألقى سيدنا أحمد عليه السلام ضوءا وافيا على هذا النبأ وكيفية تحققه. وبالإضافة إلى ذلك دعا إلى المناظرة بالعربية ثم إلى

* علما أن المناظرة المذكورة استمرت إلى خمسة عشر يوما. (الناشر)

المباهلة المسيحيين الذين يظنون عدم تحقق نبئه المتعلق بآتم، والمشائخ والمرشدين وأصحاب الخانقاهات من المسلمين الذين نسبوا إليه اعتقادات خاطئة لم يعتقد بها حضرته عليه السلام وافتروا عليه أقوالا دقارير وكفّروه وكذّبوه بوجه غير حق ووشوه عند الحكومة البريطانية كذبا وزورا. ووجه حضرته رسالة باللغة العربية الفصيحة والبلغّة إلى الذين أنعم الله عليهم بأنواع الكرامة وهذبهم بالعلم الكامل والمعرفة التامة من العلماء العاملين الراسخين، تناول فيها ذكر ما حباه الله عز وجل به من التأييدات والآيات السماوية. كما أورد بعضا من إلهاماته عليه السلام بنصها وفصها التي تلقاها من الله تعالى مرارا وتكرارا باللغة العربية، بالإضافة إلى بيان دعواه وعقائده والأدلة على صحتها المستمدة من القرآن الكريم والأحاديث النبوية الشريفة وأقوال السلف الصالح.

وأهى عليه السلام الكتاب على قصيدة طويلة ورشيقة مترعة بذكر آلاء الله تعالى ومننه على حضرته عليه السلام، مطلعها:

علمي من الرحمن ذي الآلاء بالله حزت الفضل لا بدهاء
كيف الوصول إلى مدارج شكره نثني عليه وليس حول ثناء

ولعل القراء يعرفون أنه قد سبق أن نشر هذا الجزء العربي من الكتاب المذكور بعنوان "مكتوب أحمد عليه السلام" أيضا.

ثمة أمور لا بد من التنويه إليها، وهي:

١- اعتمدنا في إخراج هذا الكتاب على الطبعة الأولى الصادرة في زمن سيدنا أحمد عليه السلام، والمحفوظة حاليًا في مكتبة "الخلافة" المكتبة المركزية للجماعة بربوة، باكستان.

٢- ثمة هوامش وهوامش على الهوامش وضعها سيدنا أحمد عليه السلام بنفسه، وكتب - عمومًا - عند نهايتها: "منه" أي من المؤلف.

٣- وهناك هوامش أخرى قد أضافتها اللجنة العاملة على إخراج هذه الطبعة. علمًا أن كل الهوامش التي وُضعت من قبل الناشر قد مُيزت عن الهوامش الأصلية بالخط المائل.

٤- إن تشكيل الكلمات قد تم بحسب الطبعة الأولى، إلا فيما شذ وندر.

٥- كما أن سور وأرقام الآيات القرآنية لم ترد في الأصل بل أضيفت من قبل الناشر في الهامش. علمًا أن أرقامها تبدأ باعتبار البسملة آية أولى من كل سورة.

مهلا أيها القارئ الكريم:

لقد ورد في هذا الكتاب كلمات وتعابير قد تبدو لأول وهلة غريبة لقارئ العربية المعاصر، ولكنها من صميم العربية، كما سيتضح لاحقًا من خلال الشواهد التي سقناها من القرآن الكريم والأحاديث الشريفة وكتب التراث. ومن هذه التعابير والأساليب على سبيل المثال لا الحصر:

١. قال حضرته عليه السلام: "ومن فضل الله ورحمته أن الصحابة

والتابعين، والأئمة الآتون بعدهم ذهبوا إلى موت عيسى." (ص ٥٣)

استخدم حضرته هنا الأسلوب القرآني الوارد في الآية التالية:

﴿إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَالَّذِينَ هَادُوا وَالصَّابِقُونَ وَالنَّصَارَى مَنْ آمَنَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ وَعَمِلَ صَالِحًا فَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ﴾

(المائدة: ٧٠)

٢. استخدم حضرته بعض أسماء الأفعال على غير المؤلف، فقال:

"ولو صرتَ جدًّا أبا زيد." (ص ٩٩)
 "ومحمد يعقوب أخ الحافظ محمد يوسف" (ص ٨٢ الهامش)
 وورد في موسوعة الصرف والنحو ما يلي:

من العرب من يقول في "أب" و "أخ" و "حم": هذا أبك، ورأيتُ
 أبك، ومررتُ بأبك. أي إنه يعربها بحركات ظاهرة... ومنهم من
 يلزمها الألف في حالات الإعراب الثلاث، ويعربها إعراب الاسم
 المقصور بحركات مقدره على الألف سواء أضيفت أو لم تُضَفْ، نحو:
 "جاء أبا" و "شاهدتُ أبا" و "مررت بأبا" ومنه قول الشاعر:

إن أباه وأبا أباه قد بلغا في المجد غايتها

(موسوعة الصرف والنحو للدكتور إميل بديع يعقوب، الأسماء الستة، ص ٨١، دار
 العلم للملايين بيروت الطبعة الثالثة ١٩٩٤)

ولا يسعنا هنا إلا أن نشكر ونطلب الدعاء لإخواننا الذين ساهموا في
 إخراج هذه الطبعة، وهم: مصطفى ثابت، تميم أبو دقة،
 هاني طاهر، عكرمه نجمي، السيدة مها دبوس، محمد عصام الخامسي،
 سيد عبد الحي شاه، جميل الرحمن رفيق، مبشر أحمد كاهلون،
 مرزا محمد الدين ناز، رانا تصور أحمد خان، الحافظ مظفر أحمد،
 مقبول أحمد ظفر، رفيق أحمد ناصر، عبد الرزاق فراز، عبد المجيد عامر،
 محمد طاهر نديم، وعبد المؤمن طاهر. جزاهم الله أحسن الجزاء، آمين.

نسأل الله تعالى أن يجعل هذا الكتاب فيصلا للحق للطالين، وأن ينفع
 به عباده، وأن يجعله سببا لهدايتهم إلى الصراط المستقيم، آمين.

الناشر

المكتوبُ إلى علماءِ الهنْدِ ومشايخِ هذه البلادِ وغيرها من البلادِ الإسلاميةِ

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

الحمدُ لله الذي مَنَّ عَلَيْنَا بِإِرْسَالِ الرُّسُلِ وَالْكِتَابِ، وَجَعَلَ الْأَنْبِيَاءَ لِحَيَاةِ التَّوْحِيدِ كَالطُّنْبِ، وَقَفَّى عَلَى آثَارِهِم بِالْأَوْلِيَاءِ لِيَكُونُوا كَالْأَوْتَادِ لِلسَّبَبِ. وَالصَّلَاةَ وَالسَّلَامَ عَلَى خَيْرِ الرُّسُلِ وَنَجْمَةِ النُّجَبِ، مُحَمَّدٍ خَاتَمِ النَّبِيِّينَ وَشَفِيعِ الْمَذْنُبِينَ، وَأَفْضَلِ الْأَوَّلِينَ وَالْآخِرِينَ، وَآلِهِ الطَّاهِرِينَ الْمُطَهَّرِينَ، وَأَصْحَابِهِ الَّذِينَ هُمْ آيَاتُ الْحَقِّ وَحُجَّةُ اللَّهِ عَلَى الْعَالَمِينَ، وَعَلَى كُلِّ عَبْدٍ مِنْ عِبَادِهِ الصَّالِحِينَ.

أَمَّا بَعْدُ فَهَذَا مَكْتُوبٌ كَتَبْتُهُ إِلَى الَّذِينَ أَنْعَمَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ بِأَنْوَاعِ الْكِرَامَةِ، وَهَدَّبْتُمْ بِالْعِلْمِ الْكَامِلِ وَالْمَعْرِفَةِ التَّامَّةِ، وَكَشَفَ عَلَيْهِمْ سُبُلَ الْإِصْطِفَاءِ وَالْقُرْبَةِ، وَحَبَّبَ إِلَيْهِمْ طُرُقَ الْإِنْكَسَارِ وَالْعُرْبَةِ، مِنَ الْعُلَمَاءِ الْعَامِلِينَ الرَّاسِخِينَ الْمُتَوَعِّلِينَ، وَالْفُقَرَاءَ الْمُنْقَطِعِينَ الْمُتَبَتِّلِينَ، الَّذِينَ جَذَبَهُمُ اللَّهُ إِلَى مَلَكُوتِهِ، وَأَذَاقَهُمْ حَظَّ لَاهُوتِهِ، وَرَزَقَهُمْ حَشِيَّةَ عَظَمَتِهِ، وَسَقَاهُمْ كَأْسَ مَحَبَّتِهِ، فَلَا تَرَهَقَهُمْ ذَلَّةُ الزَّلَّةِ، وَلَا نَكَالَ الْمُعْصِيَةِ، وَهُمْ مِنَ الْمُحْفُوظِينَ.

وَإِنَّمَا نَخَاطِبُهُمْ لِحِلَالَةِ شَأْنِهِمْ، وَصَفَاءِ وَجْدَانِهِمْ، وَسَعَةِ ظُرُوفِهِمْ، وَحِلَاوَةِ قُطُوفِهِمْ، لَعَلَّهُمْ يُؤَيِّدُونَ مِنَ اللَّهِ وَيُلْهِمُونَ، وَلَعَلَّهُمْ يَفْقَهُونَ مَا لَا فِقْهَ الْآخَرُونَ، وَيَعْلَمُونَ مَا لَمْ يَعْلَمِهِ الْمُحْجُوبُونَ. وَلَعَلَّهُمْ

يتدبرون بالفراصة الإيمانية، ويتفكرون بالتقاة الروحانية، ويقومون لله شاهدين، ليكونوا حجة الله على الظالمين المعتدين، ولينقطع معاذير المعتدلين الأفّاكين، وليضمحلّ كل قول يُقال من بعد موتي، ولتستبين سبيل المحرّمين. وإنا ندعو الله أن يؤيّدهم ويلهمهم ويحفظهم ويعصمهم ويعطيهم حظ الصالحين.

ولما كان المقصد أن يتبين الحق الذي جننا به لكلّ تقيّ وسعيد من قريب وبعيد، ألقى في روعي أن أكتب هذا المكتوب في العربية، وأترجمه بالفارسية[•]، وأرعى النواظرَ في النواضر الأصلية، وأوسّع التبليغ بالألسن الإسلامية، ليكون بلاغا تامّاً للطالين.

فاعلموا يا معشر الكرام، وجموع أولي الأبصار والأفهام، أن الله قد بعثني مجدداً على رأس هذه المائة، واختصّ عبداً لمصالح العامّة، وأعطاني علوماً ومعارف تجب لإصلاح هذه الأمّة، ووهب لي من لدنه علماً حياً لإتمام الحجّة على الكفرة الفجرة، وأعطاني ثمرًا غزاً طرياً لتغذية جيع الملّة، وكأساً دهاقاً لعطاشى الهداية والمعرفة، وجعلني إماماً لكل من يريد صلاح نفسه، ويحبّ رضاء ربّه، وجعلني من المكلمين الملهمين. وأكمل عليّ نعمه وأتمّ تفضّله وسمّاني المسيح ابن مريم بالفضل والرحمة، وقدّر بيني وبينه تشابهُ الفطرة كالجوهرين من المادّة الواحدة، ووهب لي علوماً مقدّسة نقيّة، ومعارف صافية

• حذفنا الترجمة الفارسية في هذه الطبعة لعدم حاجة القارئ العربي إليها. (الناشر)

حليّة، وعلمني ما لم يعلم غيري من المعاصرين. وصبّ في قلبي ما لم يُحيطوا بها علماً، ونوراً لم يمسه أحدٌ منهم وجعلني من المنعمين.
ومن أجلّ آلائه أنه استودعني سرّه الذي يُكشف للأولياء، والروح الذي لا يُنفخ إلا في أهل الاصطفاء، وأعطاني كل ما يُعطى لأهل الموالاته والولاء، وصافاني ووافاني، وشرح صدري وأتم بدري، وأخبرني بأكثر ما هو مُزعمٌ عليه في سابق علمه، وصبّني بصبغة حبه، وهداني طرق إسلامه وسلّمه، وأخرجني من المحجوبين.

ومن آلائه أنه وقّني لفعل الخيرات، وهداني إلى الصالحات الطيبات، وأجرى لطائف قلبي فأحسن إجرائها، وزكّى ينابيعها وماءها، وأتمّ نورها وصفاءها، وطهر مجراها وفناءها، وبدّل أرضي غير الأرض وجعلني من المطهّرين.

ومن آلائه أنه وهب لي حبّ وجهه حبّاً جمّاً، وصدقاً أكمل وأتمّ، وسألته أن يهب لي حبّاً لا يزيد عليه أحدٌ من بعدي، فأعلمُ منه أنه استجاب دعوتي، وأعطاني مُنيّتي، وأحاطني فضلاً ورُحماً، فالحمد لله أحسن المحسنين. الحمد لله الذي أذهب عني الحزن وأعطاني ما لم يُعط أحدٌ من العالمين. وما قلتُ هذا من عند نفسي بل قلتُ ما قال على السماوات ربي، وما كان لي أن أتكبّر وأرفع نفسي، إن الله لا يُحب المستكبرين، بل هذا إلهام من حضرة العزّة، وأراد من "العالمين" ما هو في زماننا من الكائنات الموجودة في الأرضين.

ومن آلائه أنه علّمني القرآن، ورزقني منه معارف تُجاوز الحدّ والحسبان، لأذكّر الغافلين المنهمكين في هموم الدنيا الدنيّة، وأنذر قوماً ما أنذرَ آبائهم في الأيام السابقة، ولأقيم الحجّة على المجرمين.

ومن آلائه أنه خاطبني وقال: "أنت وجه في حضرتي. اخترتُك لنفسي". وقال: "أنت مني بمنزلة لا يعلمه الخلق". وقال: "أنت مني بمنزلة توحيدي وتفريدي". وقال: "يا أحمدي، أنت مرادي ومعني. يحمدك الله من عرشه". وقال: "أنت عيسى الذي لا يضاع وقته. كمثلك دُرٌّ لا يضاع. جَرِيُّ اللهِ في حلل الأنبياء". وقال: "قُلْ إني أمرتُ وأنا أول المؤمنين". وقال: "اصنع الفلّك بأعيننا ووحينا. إن الذين يبائعونك إنما يبائعون الله، يد الله فوق أيديهم". وقال: "وما أرسلناك إلا رحمة للعالمين".

ومن آلائه أنه لما رأى القسيسين غالين في الفساد، ورأى أنهم علّوا في البلاد، أرسلني عند طوفان فتنهم وتراكم دُجنهم، وقال: "إِنَّكَ الْيَوْمَ لَدَيْنَا مَكِينٌ أَمِينٌ". فجتتُ من حضرة العزة وعتبة الوحدة، عند شيوع الفتن والبدعات، وظهور المفاسد والسيئات، وضعف المؤمنين المسلمين. وقد جرت عادة الله الرحيم، وسنة المولى الكريم، أنه يبعث مجدداً على رأس كل مائة، فكيف إذا كان معها طَباقُ ظلمة، وطوفان ضلالة، أليس الله أرحم الراحمين؟ وترون الناس كيف سقطوا في هوة النصارى، وكيف تمايلوا عليهم كالسُّكاري،

وخرجوا من دين الله المتين. أسمعتم مَنْ جاءكم من دُونِي لِإِصْلَاحِ
هذه الآفات، أو تظنّون أنه نَسِيَ هذه الأمة عند تلك الصدمات؟ ما
لكم لا تتفكرون، وتنظرون ثم لا تنظرون؟ أو غلبت عليكم هموم
أخرى فلا تتوجّهون؟ كلا.. إنّ الله لا يُخلف وعده، ولا يُخزي
عبده، فتفكروا إن كنتم متفكرين.

أيها الكرام.. إنّ الفتن اشتدّت، والأرض فسدت، والمفاسد
كثرت، وعلا في الأرض حزب المنتصرين. وقيل لهم مراراً، لا تجعلوا
ميتاً لها غفّاراً، واتّقوا الله مُحاسباً قهّاراً، فما خافوا الله وأصروا على
كفرهم متشدّدين. هنالك اقتضتْ أحديتّه، وقضتْ غيرته، أن يكسر
صليبيهم، ويُيطل أكاذيبهم، ويوهن كيد الخائنين.

فكلّمني وناداني وقال: "إني مرسلك إلى قوم مفسدين، وإني
جاعلك للناس إماماً، وإني مستخلفك إكراماً، كما جرت سنّي في
الأولين". وخاطبني وقال: "إنك أنت مني المسيح ابن مريم، وأرسلتْ
ليتمّ ما وعد من قبل ربك الأكرم، إنّ وعده كان مفعولاً وهو
أصدق الصادقين".

وأخبرني أن عيسى نبي الله قد مات، ورفع من هذه الدنيا ولقي
الأموات، وما كان من الراجعين، بل قضى الله عليه الموت وأمسكه،
ووفاه الأجل وأدركه، فما كان له أن ينزل إلا بروزا كالسابقين.
وقال سبحانه: "إنك أنت هو في حُلّ البروز، وهذا هو الوعد الحق
الذي كان كالسر المرموز، فاصدع بما تُؤمّر ولا تحفّ ألسنة
الجاهلين، وكذلك جرت سنّة الله في المتقدمين".

فلما أخبرتُ عن هذا قومي، قامت علماءؤهم لِلْعِني وَلَوَمي، وكفروني قبل أن يحيطوا قولي، وَيَزِنُوا حولي، وقالوا دَجَال ومن المرتدِّين. وسلطوا عليّ أوقحهم وأدَمَّهم، وحرَّقوا عليّ أرمهم كالسباع والتَّنين. فتكادَّني شرُّهم وتضورتُ، وغلوا وصبرت، واستباحوا أعراضنا ودماءنا وكانوا فيه من المفرطين. وقال كبيرهم الذي أفتى، وأغوى الناس وأغرى: إن هؤلاء كَفَرَة فَجَرَة، فلا يسلم عليهم أحد، ولا يتبع جنازتهم، ولا يُدفنوا في مقابر المسلمين.

فلما رأيتهم كالعمين المحجوبين، ورأيت أنهم جاوزوا الحد وآذوا الصادقين، ألَفْتُ لهم كتباً مفحمة ورسائل نافعة للطالبيين. فما كان لهم أن يستفيدوا أو يقبلوها وما كانوا متدبرين. وقاموا للرد فلم يقدروا عليه، وصالوا للإهانة فردَّها الله عليهم، فجلسوا متندمين. وعاندوا كل العناد، وأفسدوا كل الفساد، وحسبوا أنهم من المصلحين. وإن غلَّوهم الآن كما كان، وما لهم عندي إلا المداراة والإدراء، والصبر والدعاء، وإنا نصير إلى أن يحكم الله بيني وبينهم وهو خير الحاكمين. وما كان عندهم عذر إلا قطعته، وما شك إلا قلعته، وما كانت دعوتي إلا بنصوص الآثار وكتاب مبین.

وليسوا سواءً من العلماء والفقراء، فمنهم الذين يخافون حضرة الكبرياء، ولا يَقْفُون ما ليس لهم به علم ويخشون يوم الجزاء، ويفوضون الأمر إلى الله ذي الجلال والعلاء، ويقولون ما لنا أن نتكلم في هذا وما أوتينا علم عواقب الأشياء، إنا نخاف أن نكون من

الظالمين. أولئك الذين اتقوا ربهم فسيهديهم الله، إنه لا يضيع الخاشعين.

وأما الذين لا يخشون الله ولا يتركون سبل الأهواء، ويُخلدون إلى خبيثات الدنيا ولا تبالي قلوبهم عالمَ القدس والبقاء، ولا يرون ما يخرج من أفواههم من كلمات الكبر والخيلاء، ولا يعيشون عيشة الأتقياء، ويجعلون الدنيا أكبر همهم، والبخل أعظم مقاصدهم، ويمشون في الأرض مشي المرح والاعتداء، فأولئك الذين نسوا أيام الله ومواعيده ويئسوا من يوم الصادقين، واختاروا سبيل المفسدين. لا يزهّدون في الدنيا ويموتون للفانيات، ولا يتحلّون بحُلِّي العفّة والتقاة، وحسن الخلق ورزانة الحِصاة، ولا يدخلون الأمور بالقلب المزوّد، ويجتريّون على محارم الله والحدود، فلما زاغوا أزاغ الله قلوبهم، وختم على آذانهم، فصاروا من المحرومين. وإذا قيل لهم آمنوا بما ظهر من وعد الله، قالوا: أين ظهر وعد الله؟ وما نزل ابن مريم وما رأينا أحدًا من النازلين، بل إنا نحن من المنتظرين. وهم يقرأون كتاب الله ثم ينسون ما قرأوا، ولا يتدبرون كَلِمَ الله بل يبنذونها وراء ظهورهم، وما كانوا معنيين.

والعجب كل العجب أنهم يقولون إنا آمنّا بآيات الله ثم لا يؤمنون، ويقولون إنا نتبع صحف الله ثم لا يتبعون. ألا يقرأون في الكتاب الأعلى ما قال الله في عيسى إذ قال: ﴿يَا عِيسَى ابْنِ مَرْيَمَ خُذْ كِتَابَكَ بِرُوحِ الْقُدُسِ فَخُذْهُ بِرُوحِ الْقُدُسِ﴾، وقال: ﴿فَلَمَّا تَوَفَّيْتَنِي﴾، وما قال: "إني مُحييكَ". فمن أين علّم حياة المسيح بعد موته الصريح؟ يؤمنون بأنه لقي الأموات،

ثم يقولون ما مات. تلك كلمٌ متهافئة متناقضة، لا ينطق بها إلا الذي ضلت حواسه، وغرب عقله وقياسه، وترك طريق المهتمدين.

يا أسفا عليهم! إنهم اتفقوا على الضلالة جميعا، وخلطوا في الكلام تخليطا شنيعا. فكيف نقبل قولهم الذي يخالف القرآن؟ وكيف نسلم وهمهم الذي لا يشفي الجنان؟ أنقبل خرافاتهم التي ليست معها حجة قاطعة، ولا دلائل مقنعة واضحة؟ أيصدر مثل ذلك من رجل يخاف الرحمن، ويتقي الضلالة والخسران؟ أليس من بعد هذه الدنيا يوم الدين؟ وهل ترون يا معشر الأشراف، أن نقبل أمانيتهم ونعدل عن خطة الإنصاف، أو نتبع غرورهم وجهلهم وخدعهم بعد ما أرانا الله صراطا مستقيما، ورزقنا فهجا قويا، وعلمنا سبل العارفين. وكم من أمور أُخفيت على الناس حقائقها، وسُترت حكمها ودقائقها، ثم كُشفت على رجال آخرين خفاياها، وفهمهم الله أضلاعها وزواياها. إنه يُظهر على غيبه من يشاء، ويفتح عين من يشاء ويجعل من يشاء من الغافلين.

أليس الله بقادر على أن يجتبي مثلي بعنايته، ويعطي درايةً من درايته؟ والله أسرار في أنبائه، وحكم تحت قضائه، وإن في أقواله حكم روحانية تضل عندها عقول الفلاسفة، ولا يُظهر على غيبه أحدا إلا الذي طهره بيد القدرة، أنتم تحيطون أسراره أو تجادلونه معترضين؟

وكم من الصلحاء رغبوا في أن ينظروا من أنتم تنظرون، ويجدوا ما أنتم تجدون، فلم يتفق، حتى مضوا بسبيلهم وماتوا متأسفين. ثم

جاء الله بكم وأقامكم مقامهم، فأدرتكم وقتا ما أدركوه، وأنستم عبدا ما آنسوه. فاشكروا الله الرحمن، الذي من عليكم وأسبغ الإحسان، وخذوا نعم الله ولا تعرضوا عن قبولها، ولا تردّوا نعمة الله بعد نزولها، ولا تكونوا أول المعرضين.

وانتقوا يا معشر الكرام سُخْطَ الله العزيز العلام، ولا تعاندوا ولا تستعملوا البُهْتَ وسوء التميّز كالعوامّ، وقوموا لله شاهدين. وانظروا.. أيّدكم الله.. نظرا شافيا، وأمعنوا إمعانا كافيا، بالفراسة الإيمانية، والرؤية الروحانية، فإن أولياء الله يُعصَمون من كل زيغ وميل، ولا يشوب مَعينَهُم غثاءٌ سيل، وتحفظهم عين الله من طُرق الضالين. أترون دليلا، يا معشر الصلحاء، في أيدي الأعداء لتقبله منهم من غير الإباء، وننقاد لهم فيه كالخدماء التابعين؟ فإننا لا نعاند الحق إذا تجلّى، ولا نردّه من حيث أتى، ونعلم أن الحكمة ضالّة من تزكّى، فنأخذها ولا نأبى، ونعوذ بالله أن نكون من الجاهلين.

وقد علمتم يا معشر الأعزة، أن "مالك" الذي كان أحد من الأئمّة الأجلّة، كان يعتقد بموت عيسى، وكذلك "ابن حزم" المشهود عليه بالعلم والتقوى، وكذلك كثير من الصالحين. فما كنتُ بدعًا في هذا وما كنت من المتفردين. وما جئت في غير وقت، ألا تعرفون وقت المجدّدين؟ ألا ترون أن السماء للرجع هيأت، والأرض أجمّلت؟ وكانتا رتقا فالأرض فُتقت، ثم السماء فُتحت، والكلمة تمّت، فقوموا وانظروا إن كنتم ناظرين. وما كان الله أن يخلف وعده وإنه أصدق الصادقين.

ولله دقائق في أسراره، واستعارات في أخباره، أنتم تحيطونها أو تنكرون كالمستعجبين؟ وكم من أفعال الله سُتِرتْ حقائقها، وشوّه وجهها وأخفيَ حدائقها، ودُقِّقتْ لطائفها ودقائقها، حتى ضلّت عندها عقول العاقلين، وعجز عن إدراكها فكر المتفكرين. وأنتم تعلمون أن شأن أقوال الله ليس متنزلاً من شأن أفعال الله، بل هما من منبع واحد، وأحدهما للآخر كشاهد. فتلك من الوصايا النافعة للطالبين، أن ينظروا إلى أفعال الله متأملين، ثم يقيسوا الأقوال على الأفعال متدبرين، فإن إمعان النظر في النظائر من أقوى مجالب العلوم، وأشدّ وطأً للأوهام التي تعصف كالسوموم، فلأجل ذلك رأينا أن نكتب ههنا بعض أفعال الربوبية، الذي تحيرت فيها عقول الفلاسفة، فأضاع أكثرهم الصراط وما كانوا مهتدين.

فمنها ما يوجد تفاوت المدارج في أفعال الرب الكريم، والمولى الرؤوف الرحيم، لأنه خلق مخلوقه على تفاوت المراتب، فجعل قوما مورد المراحم، والآخرين محلّ المعاتب، وما جعلهم في شأنهم متحدين. مثلاً إنكم ترون امرأة تموت* بعلمها ويتركها حاملة ضعيفة، فترى حولها نكبة ومصيبة، لا يُوحّم أحدٌ وحامها، ولا يحصل لها لطفة عين مرأها، ولا تجد طمراً للارتداء، ولا تمرّاً للاغتذاء، بل لا يحصل لها جوبٌ تستر بها صدرها، فتقصد عاشبةً وتجعل كمجولٍ جذرها، تكتبُ يداها من الرحي، والمُخدّمة تُجرَح

* سهو، والصحيح: "يموت". (الناشر)

من شوك الفلا، وتعيش كإماء الظالمين. ثم تَحْدُجُ وتلد صبيًا نَعَاشًا مقصوعًا أعمى ناقصَ الخَلْقَةِ، بعد شِدَّةِ المخاض وضيق النفس والكُرْبَةِ. فيرى الصبيُّ من ساعة تولُّده أنواعَ المحن والصعوبة، لا يحصلُ خُرْسَةً لأُمَّه النُفْسَاءِ، ليزيد لبنها ويكفي للاغتذاء، فيمصُّ ثديها ثم يترك قبل الحَسَاءِ. ولما بلغ أشدَّهُ وبلغ الحُلمَ التامَّ وأكمل الأيام، يدخل في الغلمان والخدام، ويستخدمه شَكْسٌ زُعُرورٌ من اللثام، أو يؤخذ قبل البلوغ ويبيع كالأنعام؛ ثم يحمل متاعب الخدمة مع شوائب الوحدة. وقد يُلجئه صفرُ اليد إلى كافرٍ سَمَادٍ لطلب سَدَادٍ، فيأتيه كسَجَادٍ ولو كان أبا فرعون وشدادًا، فيدخل في خَدَمِهِ كالعبيد من العوز المبيد. وربما يسبُّه مولاه ويضربه، أو يدير عليه عصاه فيجنِّبه، ويؤاخذه على أنه لم غاب لطفة عين أو فرٌّ، وهو إذ ذاك صبيٌّ أبله لا يعلم الخير ولا الشر، ويقال مثلاً: أَخَثَ فِي الثَّقِيَّةِ، فَإِنْ لَمْ يُحْسِنِ الْفِعْلَ فَيَلْطَمُونَ أَوْ يَتَهَرَّوْنَ عَلَى الْخَطِيئَةِ، وَلَا يَرْضُونَ بَأَنْ يَأْكَلَ، وَأَكْلَهُ يُغْضِبُ الْمَحْفَلَ وَلَوْ أَكَلَ أَدْنَى الطَّعَامِ وَطَهْفَلَ، وَيَفْتَشُونَ النَّطْفَ، وَلَا يَوْجِدُ مَنْ عَطَفَ. فيلقى من كل جهة التَّرَحَّ والبرَّح، ولا تلقى * الفَرَّحَ، فقد يُضْرَبُ عَلَى سَحْقِ الْأَبَازِيرِ عَلَى الْمَدَاكِ، وَقَدْ يُلْطَمُ عَلَى مَكْتٍ فِي الْإِسْتَاكِ. يؤتونه ما خلف من كُدَادَةِ الْمُطْعَمَاتِ، وَبَلَّغَ إِلَى الْإِيْهَاتِ، أَوْ يَتْرَكُونَهُ جَائِعًا كَالصَّائِمِينَ. يشرب من بالوعة يجتنبها الدواب، ويأكل من متآبسات

* سهو، والصحيح: "يلقى". (الناشر)

يَأْنَفُ مِنْهَا الْكَلَابُ، إِذَا أَجْدَبَ الْمَلِكُ فَهُوَ أَوْلُ الْأَغْرَاضِ، وَإِذَا نَزَلَ
وَبَاءَ فَهُوَ مُورِدُ الْأَمْرَاضِ. وَإِذَا بُدِيَ الْأَطْفَالُ فَهُوَ كَعَصْفِ مَأْكُولٍ،
وَإِذَا أَبْدَوْا فَهُوَ بَقِيٌّ كَمَخْدُولٍ[♦]، لَا يَقْدِرُ عَلَى أَكْلِ الْعَضَاضِ،
وَإِذَا جُرِحَ فَلَا يَظْهَرُ أُرَيْكَةُ الْجُرْحِ، وَلَا يَظْهَرُ لَحْمٌ صَحِيحٌ بَعْدَ
الْقَرْحِ. وَقَدْ يُؤْمَرُ لِكَسْحِ الْكِنَاسَةِ، أَوْ لَغَسْلِ الْكَاسَةِ، فَيُضْرَبُ عَلَى
خَطَاةٍ قَلِيلٍ مِنَ الْخَبَاثَةِ، وَقَدْ يُجْعَلُ حَمُولَةً لِأَحْمَالٍ، فَلَا تَبْكِي عَلَيْهِ
عَيْنٌ بَدَمَعَ هَمَالٌ، بَلْ يَحْمِلُ مَرَارًا أَثْقَالًا فَيَجْرِي دَمَهُ كَالْحَائِضِ،
وَيُعْدُونَهُ عَلَى أَرْضِ دَمَثَةٍ كَالْمُهْرِ تَحْتَ الرَايِضِ، وَقَدْ يُجْعَلُ كَالْوَجْنَاءِ
وَيُرَكَّبُ عَلَيْهِ، وَقَدْ يَهْجُدُ لِلخِدْمَةِ وَاللَّيْلُ يَتَصَبَّبُ أَوْ يَجْتُمُّ أَمَامَ
عَيْنِيهِ، وَقَدْ يُؤْمَرُ لَشَقِّ الْحَطَبِ حَتَّى تَمَجُلَ يَدَاهُ، وَتَتَخَاذَلَ رِجْلَاهُ، ثُمَّ
يُؤْتَى الْخَبِيزَ قَفَّارًا فَتَبْكِي عَيْنَاهُ. يَأْكُلُ جَبِيزًا وَيَنْفِزُ خَفِيزًا، وَقَدْ يُضْرَبُ
ضَرْبًا شَدِيدًا، فَلَا يَجْنَأُ عَلَيْهِ أَحَدٌ، بَلْ يَجْفَأُ قَدْرُ غَضَبِهِمْ فَيَدُوسُونَهُ
بِضَهْدٍ. وَهُوَ يَشْكُو كَثِيرًا، فَمَا يَنْجَعُ قَوْلُهُ فِي قَلْبِ، بَلْ يُقَدُّ شِدْقُهُ
دَعَابَةً وَيُخْسِنُونَ كَكَلْبِ. وَيَطِيرُ نَفْسُهُ شِعَاعًا مِنْ كُلِّ طَبَعِ صُلْبٍ،
لَا يَجِبُهُ شَقِيقٌ وَلَا الْأَحْيَاءُ، وَيَظُنُّونَ أَنَّهُ ثَالِثَةُ الْأَثَائِيِّ. إِذَا صَافَى رَجُلًا
فَمَا أَحَبَّ، وَإِذَا زَرَعَ فَمَا أَحَبَّ، وَإِنْ أَحَبَّ فَمَا أَلْبَّ، أَوْ بُرِدَتْ
أَرْضُهُ أَوْ أَجَبَى زَرْعَهُ ثُمَّ بِالْجُوعِ تَبَّ. وَإِذَا تَخَبَّشَ مَالًا مِنَ الْأَمْوَالِ
فِيهِجَ عَلَيْهَا زَوْبَعَةُ الزَّوَالِ، ثُمَّ يَأْخُذُهُ نَوْجَةُ الْحَسْرَةِ وَوَجَعُ الْبَالِ،
وَإِذَا شَكِيَ فَحُمَادَاهُ أَنْ يُضْحَكَ عَلَيْهِ وَيُعْزَى إِلَى الْجَهْلِ وَالْجَاهِلِينَ.

♦ ربما هو سهو، والصحيح: "كمخدول". (الناشر)

وأنفدَ عمره عزبًا، حتى اشتعل رأسه شيبًا، وإذا تزوجَ فزوّجَ بجالعةٍ
مفسدة ناشزة، كرية المنظر مسنون الوجه ونافرة، فينفد عمره في
نائبات الدهر وتحت أنياب النكد، وربما يريد أن ينتهر* لقلّة ذات
اليد، ويرى نفسه في فلاة عوراء، لا شجرة فيها ولا غذاء، وكذلك
يعيش أحما غمراتٍ في آلام، ويمرض كل عام، فتارة يرمد وتارة
يَطْحَلُ أو يؤخذ في زكام، وقد يعروه مرضٌ فيمتدّ مداه، حتى تعرقه
مداه، وبالآخر يُنزع عنه ثوب المحيا، ويُسلم إلى أبي يحيى.

فالآن فكّرْ ثم فكّرْ، ثم تذكّرْ سنن الله في العالمين. أليست في
أفعال الله معضلاتٌ لا تُدرى، وأسرار لا تحصى؟ فقس أيها المسكين
أقوالَ الله على أفعاله، ولا تعجب لمعضلات أنباء الله وعُضاله، ولا
تعجلْ في أمرٍ مجدّدٍ وصدق مقالته، ولا تقلْ إني ما رأيتُ علامات
أخبرتُ عنها، وما شهدتُ أماراتٍ بلغني أنباؤها، فإن الله قد أتمَّ
كلماته كلها، وأظهر علاماته جميعها، ولكن عميت عليك حقيقة
أقوال الله، كما عميت عليك حقيقة أفعال الله. وكم من أنباء
تُكسى وجودها بالاستعارات ولطائف الإيماء، وتُنكرُ أشخاصها عند
إتمام الوعد والإيفاء، ويُدقّق معانيها من حضرة الكبرياء، بما يراد
أنواع الابتلاء. ألا ترى إلى رؤيا الناس، كيف تتراءى في أنواع
اللباس، وكيف يخفى مفهومها فلا يتجلى حقيقتها إلا على

* سهو، والصحيح: "ينتحر" كما تادل عليه الترجمة الفارسية. (الناشر)

الأكياس، الذين يَعْلَمون العلم من رهم ولا ينطقون بالقياس، فأين تذهب من سنن رب العالمين؟

وإذا قيل لك في الرؤيا إن ابنك الميت سيعود ويرجع إليك، فلا تحمّلها قطّ على الحقيقة أنت ومن لديك، ولا تمدّ إلى قبره عينيك، ولا تحفر لحدّه طمعاً في حياته، ولا تجادل الناس في رجوعه بعد مماته، بل تؤول الرؤيا وتقول: إن ابنا مثله يولد لي فكأنه هو يؤول. فأنتى تقلب في أمر عيسى، تلك إذا قسمة ضيزى، وكل من الله الأعلى، فلا تعجل كالذين هلكوا من قبلك وضلوا وأضلوا كمثلك. وقد علمت أن القوم جهدوا جهدهم ليضيعوا أمري ويفرقوا تفريقا، فلو كان من عند غير الله لمزقوه تمزيقا، وليجعلونا* كالمعدومين الفانين. إنهم مكروا كل مكر، وهيجوا عشائر، وتربصوا علينا الدوائر، فديسوا تحت دوائر السوء مخدولين، وأعظم الله شأننا، وأعلى برهاننا، وسود وجوه الحاسدين. وقال فرعونهم: ذروني أقتل موسى، إني أنا الذي رفعه، وإني أنا الذي سيحطّه، ويلقيه في جبّ المهانين. وقال ربي: "إني مهين من أراد إهانتك، ومعين من أراد إعانتك"، فأذقه ربي طعم نخوته الكبرى، وجعل مكانته هي السفلى، إن الله لا يحبّ المستكبرين.

وترى الناس كيف يردون إلينا، وكيف يمنّ ربنا علينا، وكيف يأتي الله أرضه ينقصها من أطرافها، وكيف يأتينا خيار الناس من

* يبدو أنه سهو، والصحيح: "وَأَجَعَلُونَا". (الناشر)

أقطارها وأكنافها، ذلك من فضل الله لئيري الناس أن أعداءنا كانوا كاذبين. إنه يُعزّ من يشاء، ويرفع من يشاء، لا راداً لفضله، ألا إن الحق علا، وتَعَسًّا للقوم الكائدين المزاحمين.

وانظُرْ إلى آثار سنن الله في أفعاله، أتفهمُ معضلاتها أو تحيط بحكم كماله؟ فما لك لا تهتدي من طرز أفعاله إلى طرز أقواله، وتختار سبل الغاوين؟ أما ترى أن عبداً قد يُبتلى بالنائبات، ولا يُدرى من ظاهر سمته أنه من الفاسقين والفاسقات، فالآفات تنزل عليه كالعوائر، أو كالسهم العائر، وبيته كالمستهام الحائر، وكان في وقت يملك المال النفيس، والآن يُعدُّ من عُصبة مفاليس، حتى يبدو بادي اللبانة، بالي الكسوة، وكان يقول: أنا أكثر مالا وولدا، وأُعطيْتُ التنعيم والمُلدِّد، وكان يقول: إني من الصالحين، وجحيش وشيخان وفاتك وأمين، وكان يدّعي أن له دخل عظيم في الحديث والقرآن، وأنه جمع في نفسه أنواع العرفان، فأتى أمرُ الله وقضاؤه، ونزل عليه بلاؤه، فذهب بسمعه وأبصاره، وختم على قلبه وجعله أوّل الجاهلين. فاشتهر بحمقٍ فاضح، وجهل واضح، وأُخرج من الجنة التي كان فيها كالمكرمين. فصارت له السفاهة والذلة، والجهل والنكبة، كالموارث المعينة والحصص المفروضة المسلمة، وسقط من سماء العروج كالملعونين. ويعلم الناس أن مصيبته جلت، ونوائبه عظمت، ثم يمرون به مستهزئين. وهو يُدبر فلا يقدر على أن يفرّ من قدر الله ذي الجلال، ولو فرّ على لاحقة الآطال، وربما يتبصر كالجذع ويُقدم كالقارح، فيجيء قدرُ الله ويطرحه كالصبي في البارح، فيرتعد كلَّ

وقت كاليراع، ويتحرك كاللعاع، ويفكر أزيد من القدر اللازم، ثم لا ينحو من الهم الهادم، ويبقى كالحائنين. ثم يبدو له أن يقطع المسافة النائية ليعالج الآلام القضائية ويكون من الفائزين؛ فيقال مثلا إن أمير "كابل"، يربي العلماء ويشابه الوابل، فيفرح فرحا شديدا كالسكران، ويقصد "كابل" مع بعض الإخوان، ليوطنوه أمنع جناب، ويُمطروا دراهم كسحاب، وهو يجعل ابنه الذي هو سره رفيق عتاده، خوفا من ارتداده، ولم تزل تعاني عينه السرى، وتُعاصي الكرى، فيصل "كابل" بشق النفس وجهد المهجة، بعد مكابدة أنواع الصعوبة، ويلقى بعض العملة، ويصافي بالنفاق والمداهنة، ويخفي مذهبه خوفا من الحرمان، أو الهوان من أيدي "عبد الرحمن". وكذلك تُسوّل له النفس من عُسر المعيشة، فيسجد تواضعا لكل ذوي الثروة، ويخرّ أمام أركان الحكومة، وحينئذ يصدق فيه ما قيل في أهل التزوير: "بئسَ الفقير على باب الأمير".

فالحاصل أنه يصدع عملة الأمير بالمحبة، ويتبخخ بالصحة، ويوجي أقدامه إلى قصر الأمير غربة، فلا يقول له أحد اركب مطية، أو تسلّم عطية، ويسأل إلخافا كالشحاذين. وينكر شخصه ويلفح وجهه، لئلا يؤخذ كالجرمين. ويكون لهم أطوع من حذائهم، وأفنى فيهم من غذائهم، ويسلم عليهم تحية الخادمين. ثم يقودونه إلى حضرة الأمير، ويذهبون به كالأسير، فيخرّ أمامه كالساجدين، ويثني عليه قائلا: يا أيها الأمير الأكرم، والسلطان الأعظم، مسني وأهلي

ضراً، وبعمرك إن عيشي مرٌّ، وجئتك من ديار بعيدة، بمصائب شديدة، فتصدّق عليّ إن الله يجزي المتصدقين.

ويخاطبه الأمير بلسان ذلِّق، ولا يُريه رائحة من مَلَق، ويقول اجلسْ ويتكلم به غضباناً، فيظنّ المسكين أن أجله قد حان، فهناك لا يبقى إيمانه بالألطف الرحمانية، ويكاد يخرج بوله من الهيبة السلطانية، وكذلك يخزي الله عبدةَ المخلوقين. ثم يخرج من بيت الأمير، ويستيقن الأمير أنه أحد من أهل التزوير، فلا يُؤوى إليه كرجال متقين. وأما ذلك المغرور الجهول، والسفيه المخدول، فيظن أن العطايا العظام ستسلم إليه، ويكرمه الأمير ويكون له مكانة لديه، أو يدخل في المقربين.

فبينما هو في نسج هذه التخيلات، وتغيير اللباس كالصائد والصائدات، يطلّع بعض المتوسمين على شقاقه، ويُخبرون عن فطرته وطريق نفاقه، فيفاجئه داءُ الإشفاق، ولا يسري الوسن إلى الآماق، ويظن أنه من المقتولين. ويُوجس في نفسه خيفةً على خيفة، بما يرى رعب الأمير وطريق عقوبة، فتكاد تزهق نفسه ويسقط كخيفة، أو يغمى عليه كالمفسدين الخائفين. فيفر ويرتحل بالمُدلجين المُجدِّين، ويحسب حياته صلةً من أمير المسلمين. أو يعطى له قليل إنعامه، فلا يقلُّ به شيء من إصرامه، ولا تفيده سجدته ولا جهدُ اصلحمامه، بل يعرف أنه ليس أهل إكرامه، فلا يظلمه الأمير النحرير، بل هو يظلم نفسه فلا ينفعه البحر ولا الغدير، فيقصد داره مخذولاً وملوماً، ومريضاً محموماً، ويُظهر أنه رجع فائزاً مقبولاً، مع أنه رُدَّ في الحافرة،

ورجع بالكرّة الخاسرة، ولكن يستر أمره خوفاً من اللاعنين، وكذلك ينفد عمره كالمصايين.

ثم يرجع من تلك البلدان، ويصبر ملياً من الزمان، وبعد برهة يقصد أناساً آخرين، فلا يرى وجه خيراً من جناب، ويتردد من باب إلى باب، ويخسأ ككلاب، وتترامى به مرامي الإفلاس، إلى فلوات الهوان والانتكاس، ويُجلى من أرض إلى أرض، ويكابد محن السفر لعرض، حتى يصير ابن كل تربة، وأخا كل غربة، يقطع كل واد، ويشهد كل ناد، ثم يرجع بجرد ووجه كرماد، ومرض جلاّد كالحائبين. لا يرى يوماً مُسلياً عن الأشجان، ولا قوماً مواسين كالأعوان، ولا يأتيه الحمام، لينقطع الآلام، فيلغن بخته كالملعونين، وكذلك يعيش بشنونة الشحاذين والسائلين إلحافاً والمعتريين. يأكله الإفلاس، ويدوسه الانتكاس، حتى يذهب عقله ويحتلّ الحواس، ويريد أن ينبط فيغيض، ويسعى أن يصعد فيتصدى له الحضيض، ولا يزال يسمع لعن القوم، ويوخزونه بأسنّة اللوم، وربما يضربونه على هفوته، مغاضبين على ما يخرج من فوهته، ويُضربون عليه بأدنى العثار، وكادوا أن يقتلوه بالسيف البتار، ولا يعدّون عن اللذّع والقذّع، ولا يذيقونه رائحة كرم الطبع، بل ربما يضربونه بالنعال، أو العصي والحبال، حتى يجد ما يجد الحائر الوحيد، ويرى كل ما كان عنه يحيد، ويقول يا ليتني مت قبل هذا وما مسّني الخزي المبيد. فيضطر إلى أن يختار البين المطوّح، والسير المبرّح كالمصايين. فيمشي راجلاً، ويركض عاجلاً، يعتمد الليل، ويلج السيل، وربما يتراءى له

شَبَّحُ مراد، أو يدعوهُ أحد بإظهار وِداد، فيفرح ويُعدي إليه نِصْوَ عِتَادٍ، بِنَادٍ واستيساد، وَيُنْضِي عَرْبَاضَهُ بَوَقْدٍ* وذَمِيلٍ، وإجازةٍ مِيلٍ بعد مِيلٍ، فبالآخر يلقى الخسران والحُرمان، ويظهر أن الداعي قد مان، ويتحقق أن سفره ابتلاء ومحل الاستهزاء، والأمل باطل وخيال كتنخيلات "نزل الماء"، والمالُ خسران مع شماتة الأعداء. وبالآخر تُشَبِّهه النوائب، ويحضُرهُ الأجل الغائب، فيموت وهو هِمٌّ، وعليه هدمٌ، فلا يبكي باك عند رفع جنازته، ولا تذرف عين على فُرقته، ويرتدُّ أبناؤه بعد موته من الدين، ويتنصِّرون ويلحقون بالشياطين. ويملك شركاؤه داره الخربة، ولا يُهدُّون إليه إلا اللعنة، فيقطع اسمه من الدنيا، ويكون مآل أمره خسران الدنيا والدين، وسواد الوجه في الدارين، والبعد من رب العالمين.

ورجل آخر وُلد في بيت الشرف والكمال، والعزة والإقبال، ما مسَّ أبويه الإفلاس، وما علم ما البأس وخرَّجه الأكياس، ويهتَزُّ الخدام عند حركة شفتيه، ويثبُون لتحصُّل ما أحبَّ لديه، وترى جَفْرَهُ مُنْبِطًا، وَقَفْرَهُ مُعْشَوْشِبًا، وَمِنْ كُلِّ فِعْلٍ يُتْرَعُ كَيْسُهُ، وَتَمِيسُ خَنْدَلَيْسُهُ، ويعيش حميدا ويحسبه الناس سعيدا ومن الصالحين.

بل ربما تجد رجلا فاسقا قويمَ الشاطِ جُمومَ النشاط، يَمِيسُ في حَللِ المِراح، ولا يَخْطِي سَهْمَهُ من غرض الأفرح. يُسَفِّدُ له كل لحمٍ غريضٍ على السَّفُود، وَيُشَوِّى له الفراريج مع الرغيف المثرود، وهو

* سهو، والصحيح: "بوخذ". (الناشر)

يَأْبِرُ كَأَبْوَزِ الظُّبَاءِ، وَقَدْ يَجِدُ كَنْزًا فِي الْجَهْرَاءِ، وَيَصِيدُ أَنْسًا كَالدُّوَابِ
بِإِرَاءَةِ مَلَامِحِ السَّرَابِ، وَمَعَ ذَلِكَ لَا يَرَى الْبَأْسَاءَ وَالْحُوبَةَ، وَلَا يَكَابِدُ
الصَّعُوبَةَ، وَيُعْطَى حَظًّا كَثِيرًا مِنْ رُؤْيَةِ غَيْدٍ، وَسَمَاعِ أَغَارِيدٍ، وَأَمْوَالِ
وَبْنِينَ، وَأَمْوَالِكِ وَأَرْضِينَ، وَغُلْمَانَ وَخَادِمِينَ. مَعَ أَنَّهُ يَسَارِعُ فِي
السَّيِّئَاتِ، وَلَا يَتُوبُ مِنَ الْمَمْنُوعَاتِ، وَلَا يَأْخُذُ فِي كُسْعِ الْهِنَاتِ
بِالْحَسَنَاتِ، وَتَلَا فِي الْهَفْوَاتِ قَبْلَ الْوَفَاةِ، بَلْ يَجْتَرِئُ عَلَى الْمَنْهِيَّاتِ،
وَيَجَاوِزُ حُدُودَ اللَّهِ كَالْغَالِينَ. وَلَا يَتَّقِي بَلْ يَتَبَرَّأُ مِنْ مَلَاقَاةِ التُّقَاةِ،
وَلِقَاءِ الثَّقَاتِ، وَمَدَانَاةِ أَهْلِ الدِّيَانَاتِ، بَلْ يَرِغِبُ فِي مُقَانَاةِ الْقَيْنَاتِ،
وَمَعَانَاةِ الْفَاسِقَاتِ، وَلَا يَسْمَعُ نَصْحَ الْأَجَانِبِ وَلَا الْأَقْرَابِ، بَلْ يَأْبِرُ
النَّاصِحِينَ كَالْعُقَارِبِ، وَلَا يَلْتَفِتُ إِلَى وَصَايَا الْحَيِّ، بَلْ يَصُولُ عَلَيْهِمْ
كَالْحَيِّ*، وَلَا يَفِيءُ مَنْشَرَهُ إِلَى الطَّيِّ، بَلْ يَزِيدُ كُلَّ يَوْمٍ فِي إِثْمِ مَبِينِ.

* حاشية: قال بعض البراهمة إن التفاوت من أعمال النشأة السابقة. واعلم أنهم قوم
يعتقدون بالتناسخ نظراً على تفاوت مراتب المخلوقات، ويقولون إن أنواع الحيوانات قد
حدثت من أنواع الحسنات والسيئات، وأصروا على هذا وجاءوه موعبين. وأنت تعلم
أن هذه الأوهام ما ظهرت من منبع بصيرة، ولا من لجة معرفة صحيحة، وما قامت
عليها حجة من حجج قاطعة، بل تشبثوا بها عند عمه وحيرة، وعدم الوصول إلى حقيقة
أصلية، ولغوب الفكر وقلة دراية، وما استطاعوا أن يقيموا دليلاً عليها، بل أنت ستعلم
أن الدلائل قامت على ما خالفها كما لا يخفى على المستبصرين. وكان عليهم أن يثبتوا
أن الروح الذي انتقل من الدنيا باليقين رجع إليها ثانياً، ورآه حزب من الشاهدين، فما
أتوا بالشهداء كالصادقين.

وكفأك من وجوه بطلان هذه العقيدة الفاسدة، أما يخالف¹ نظام الرحمانية الإلهية،
ويجعل² الله الكامل القادر الخالق كالضعفاء المعطلين. وأنت تعلم أنه خلق كثيراً من
الآلاء والنعماء للإنسان، وما كان وجود الإنسان ولا وجود أعماله في تلك الأوان،
كما أنه خلق الأرض والسماء، والشمس والقمر وكل ما شاء، في الأفلاك والأرضين،

لينتفع بما الناس بإذن رب العالمين. ولا شك أن وجود الإنسان ووجود أعماله بعد وجود هذه المخلوقات، كما ترى أن وجودنا مسبوق لوجود الأرض والسموات والعناصر التي عليها مدار الحياة، والإنكار جهل وسفاهة، ومن قبيل المكابرات، فالرحيم الذي خلق لنا قبل وجودنا كثيرا من النعماء، كيف يُظنُّ أنه بدّل قانونه بعد تلك الآلاء، وفوّضنا إلى أعمالنا كبخيل وضيعين؟

ثم الذين انغمسوا في هذه التوهّمات، وظنوا أن هذا العالم يدور على محور التناسخات. يقولون إنه ليس أحدٌ خالق أصل المخلوقات، بل كل روح قديم وواجب كمثل الله وكذلك أجزاء المركبات، وهذا هو الأمر الذي لزمهم من إنكار صانع المصنوعات. فإنهم لما أنكروا بوجود البارئ الصّانع، اضطروا إلى أن يُقرّوا بقدم الأشياء، فجعلوا كل شيء واجب الوجود، مضطرين. وظنوا أن صانع العالم أحدٌ منهم في الوجوب والقدم كالمتشاركين. فهذا دليل آخر على إبطال أوهامهم، وردّ كلامهم عند المحققين. فإن الله الذي هو قيوم الأشياء، وبه بقاء الأرض والسماء، كيف يمكن أن يكون أحدٌ من الموجودات، ويساويهم في الوجوب وقدم الذات؟ ولو كان البارئ أحدًا منهم وعلى درجة المساواة، فكيف تكون ربوبيته محيطة على الأرواح وأجساد الكائنات؟ بل هو إذ ذاك يكون كالإخوان للآخرين، لا مبدأ الفيض ورب العالمين. وستبان بين هذه الحالات وبين قيوم السماوات والأرضين. ثم حينئذ لا تبقى دلالة شيء على وجوده، وكيف الدلالة إذ لم يخلق شيئاً بل تباعد عن حدوده؟ ولا يفني القلب السليم، والعقل القويم، أن يبقى وجود البارئ بغير دليل وبرهان مبين.

ثم لَمَّا سلّموا أن أنواع المخلوقات نتيجة لضرورة لأنواع الحسنات والسيئات، لزمهم أن يُقرّوا بأن أقسام الحيوانات لا يُجاوز أقسام الحسنات والسيئة، وهذا باطل بالبداهة والمشاهدة الحسيّة. فلا شك أن هذه الأوهام قد نُحِتت من تلفيقات إنسانية، وتجوزات اضطرابية، فإنهم إذ لم يهتدوا إلى الحق، ألقوا الآراء رجماً بالغيب كالعامهين، وما كانوا مهتدين.*

ثم من المعلوم أن الأمر لو كان كذلك من رب الكائنات، لوجب أن يكون قلة الناس وكثرتهم تابعا لتغيّر عدد الحيوانات، وهذا باطل بالبداهة، وكذب بَحْتٌ عند نظر التجربة، لأننا نشاهد غير مرة في أيام البسرات، كثيرا من الأذبة والحشرات، والهوام والديدان والضفادع وأنواع الحيوانات، ونعلم أنها أضعاف مضاعفة من عدد نوع الإنسان، بل لا يوجد الناس عَشْرَ عَشْرَها عند الحسبان. فلو كانت هذه الحيوانات أرواح الآدميين، فلزم أن لا يبقى في الخريف نفس واحدة منهم في الأرضين، ولكننا لا

نرى هناك نقصاناً في عدد نوع الإنسان، مع كثرة تكوُّن حشرات الأرض والديدان، بل نراهم كل يوم متزايدين.

وأما قولهم أنها أرواح تنزل من معمورة السماوات، فهذه تكلفات واهية ومن قبيل الخرافات، نُحِتَتْ عند فقدان الدلائل وورود الاعتراضات، وما أرى دلائل أُقيمت على تلك الخيالات، بل هي كلمات غير معقولة تخرج من أفواههم من غير الإثبات، كمثّل غريق يتشبَّث بالحشائش خوفاً من الممات. ولو كان في السماوات ونجومها وشموسها وأقمارها أناس ساكنين مطمئنين، لكان معهم كثير من الحيوانات والحشرات التي انتقلت أرواحها من أجساد الآدميين،

ولكان ذلك النظام أكمل وأتم كنظام الأرضين، غير محتاج إلى معمورة الآخرين. فبأي ضرورة تلجأ الأرواح حينئذ إلى النزول؟ وكيف يستقيم هذا التأويل عند العقول؟ أليس في حُماة هذه العقيدة رجل من المستبصرين؟

ثم لَمَّا جرت العادة أن كل حشرة تتكون في تلك الأيام، وكذلك وقعت في قانون الله صورة النظام، ولا تبلغ إلى هذه الكثرة في غير تلك الأيام المعدودة، فلو كان سبب هذا انتقال أرواح الناس إلى الحشرات في أيام البُسْرَات، لكان هذا الأمر من معضلات غير منحلّة عند التحقيقات، بل من أمور بديهي³ البطلان والمحالات، ومورد كثير من الاعتراضات، عند كل ذي رأي متين. أتظن أن بني آدم يُدبّون في تلك الأيام أكثر من أيام أخرى، فيموتون وينقلبون إلى الحشرات جزاء من رهم الأعلى؟ فانظر.. أهدأ أمر يقبله قلبك بالثلج التام، أو يشهد عليه قانون الله وصورة النظام؟

ثم إننا نشاهد أن كثيراً من الحشرات والديدان الصغار، تخرج من أقصى طبقات الأرض عند حفر الآبار، بل توجد في مياهها ديدان دقيقة كالصئبان، لا يخفى عند الامتحان، أو تترأى بالآلات تحديد البصر باليقين. فالآن ما رأيك؟ أتزعم أن الأرواح تنزلت أولاً على سطح الأرض من العلى، ثم حُسنفت وبلغت إلى منتهى طبقات الثرى؟ فاتق الله يا مسكين.

وإن قلت: فما بال الناقصين الذين ماتوا على حالة النقصان، وانتقلوا من هذه الدنيا مع أُنقال العصيان، فإنهم ما يُردّون إلى الدنيا ليتداركوا ما فات، فكيف يُكمّلون ويجدون النجاة، أو يدخلون في الجنة غير مكملين، أو يُتركون إلى الأبد معدّيين؟ فاسمع.. إننا نعتقد بأن جهنم مُكمّلة للناقصين، ومنبّهة للغافلين، وموقظة للنائمين. وسماها الله أمّ الداخلين، بما تُربُّهم كالأُمَّهات للبنين. ونعتقد أن كل بصر يكون يومئذ حديداً بعد برهة من الزمان، ويكون كل شقي سعيداً بعد حقب من الدوران، ولا يلبثون إلا

أحَقَابًا فِي النَّيْرَانِ، إِلَّا مَا شَاءَ اللَّهُ مِنْ طَوْلِ الزَّمَانِ، فَإِنَّمَا مَا أُعْطِينَا عِلْمَ تَحْدِيدِهِ بِتَصْرِيحِ الْبَيَانِ، فَهُوَ زَمَانٌ أَبَدِيٌّ نَسْبَةٌ إِلَى ضَعْفِ الْإِنْسَانِ، وَمَحْدُودٌ نَظْرًا عَلَى مَنْنِ الْمَتَانِ، وَلَا يُتْرَكُونَ كَالْأَعْمَى إِلَى الْأَبَدِ عَلَى وَجْهِ الْحَقِيقَةِ، وَيَكُونُ مَالٌ أَمْرَهُمْ رَحْمَ اللَّهِ وَالرُّشْدَ وَمَعْرِفَةَ الْحُضْرَةِ الْأَحْدِيَّةِ، بَعْدَ مَا كَانُوا قَوْمًا عَمِينَ. وَنَعْتَقِدُ أَنَّ خُلُودَ الْعَذَابِ لَيْسَ كَخُلُودِ ذَاتِ اللَّهِ رَبِّ الْأَرْبَابِ، بَلْ لِكُلِّ عَذَابٍ انْتِهَاءٌ، وَبَعْدَ كُلِّ لَعْنٍ رُحْمٌ وَإِيوَاءٌ، وَإِنَّ اللَّهَ أَرْحَمَ الرَّاحِمِينَ. وَمَعَ ذَلِكَ لَيْسُوا سَوَاءً فِي مَدَارِجِ النَّجَاةِ، بَلِ اللَّهُ فَضَّلَ بَعْضَهُمْ عَلَى بَعْضٍ فِي الدَّرَجَاتِ وَالْمَثُوبَاتِ، وَمَا يَرِدُ عَلَى فِعْلِهِ شَيْءٌ مِنَ الْإِيرَادَاتِ، إِنَّهُ مَالِكُ الْمَلِكِ فَأَعْطَى بَعْضَ عِبَادِهِ أَعْلَى الْمَرَاتِبِ فِي الْكَمَالَاتِ، وَبَعْضَهُمْ دُونَ ذَلِكَ مِنَ التَّفَضُّلَاتِ، لِيُثَبِّتَ أَنَّهُ هُوَ الْمَالِكُ يَفْعَلُ مَا يَشَاءُ، لَيْسَ فِيهِ إِتْلَافٌ حَقٌّ مِنْ حَقُوقِ الْمَخْلُوقِينَ. وَلَمَّا كَانَ وَجُودُ اللَّهِ تَعَالَى عِلَّةً لِكُلِّ عِلَّةٍ، وَمَبْدَأٌ لِكُلِّ سَكُونٍ وَحَرَكَةٍ، وَهُوَ قَائِمٌ عَلَى كُلِّ نَفْسٍ، فَلَيْسَ مِنَ الصَّوَابِ أَنْ يُعْزَى إِخْلَادُ الْعَذَابِ إِلَى هَذَا الْجَنَابِ، وَمَا كَانَ الْعَبْدُ مُخْتَارًا مِنْ جَمِيعِ الْجِهَاتِ، بَلْ كَانَ تَحْتَ قَضَاءِ اللَّهِ خَالِقِ الْمَخْلُوقَاتِ وَقِيَوْمِ الْكَائِنَاتِ، وَكَانَ كُلُّ قُوَّتِهِ مَفْطُورَةً مِنْ يَدِهِ وَمِنْ إِرَادَتِهِ، فَلَهُ دَخَلَ عَظِيمٌ فِي شَقَاوَتِهِ وَسَعَادَتِهِ. فَكَيْفَ يَتْرَكُ عَبْدًا ضَعِيفًا فِي عَذَابِ الْخُلُودِ، مَعَ أَنَّهُ يَعْلَمُ أَنَّهُ خَالِقُ الشَّقِيِّ وَالْمَسْعُودِ، وَالْعَبْدُ يَفْعَلُ أَفْعَالًا وَلَكِنَّهُ أَوَّلُ الْفَاعِلِينَ، وَكُلُّ عَبْدٍ صُنِعَ يَدِهِ وَهُوَ صَانِعُ الْعَالَمِينَ. وَإِنَّهُ رَحِيمٌ وَجَوَادٌ وَكَرِيمٌ، سَبَقَتْ رَحْمَتُهُ غَضَبَهُ، وَرَفَقَهُ شِصْبَتُهُ، وَلَا يُسَاوِيهِ أَحَدٌ مِنَ الرَّاحِمِينَ. فَلَا يُفْنِي كُلَّ الْإِنْفَاءِ، وَيَرْحَمُ فِي آخِرِ الْأَمْرِ وَانْتِهَاءِ الْبَلَاءِ، وَلَا يَدُوسُ كُلَّ الدُّوسِ بِالْإِيذَاءِ كَالْمُتَشَدِّدِينَ، بَلْ يَبْسُطُ فِي آخِرِ الْأَيَّامِ يَدَهُ رَأْفَةً وَيَأْخُذُ حُزْمَةً مِنَ النَّارِيِّينَ. فَانظُرْ إِلَى يَدِ اللَّهِ وَحَزْمَتِهِ، هَلْ تَغَادَرُ أَحَدًا مِنَ الْمَعْذُوبِينَ؟ وَكَذَلِكَ أَشَارَ فِي أَهْلِ النَّارِ وَقَالَ قَوْلًا كَرِيمًا، فِيهِ إِطْمَاعٌ عَظِيمٌ وَنَسِيمٌ الْإِبْشَارِ، فَقَالَ: ﴿خَالِدِينَ فِيهَا مَا دَامَتِ السَّمَاوَاتُ وَالْأَرْضُ إِلَّا مَا شَاءَ رَبُّكَ إِنَّ رَبَّكَ فَعَّالٌ لَمَّا يُرِيدُ﴾ (هود: ١٠٨)، فَانظُرْ إِلَى اسْتِثْنَائِهِ بِبَصْرِ حَدِيدٍ وَنَظَرِ رَشِيدٍ، وَلَا تَنْظُنْ ظَنَ السُّوءِ كَالْيَائِسِينَ.

وَالْعَجَبُ كُلُّ الْعَجَبِ مِنْ إِلِهِ النَّصَارَى، أَنَّهُ بَزَعَهُمْ صَلَبَ ابْنِهِ وَأَضَاعَ وَحِيدَهُ كَالْمَجْنُونِ وَالْغَضْبَانَ، وَمَا سَلَكَ فِي الْجِجَارَةِ طَرِيقَ الْعَدْلِ وَالرَّفَقِ وَالْإِحْسَانِ، بَلْ خَوْفٌ مِنَ الْعَذَابِ الْأَبَدِيِّ الَّذِي لَا يَنْقَطِعُ فِي حِينٍ مِنَ الْأَحْيَانِ. فَأَيْنَ الرَّحْمِ فِي مِثْلِ هَذَا الْقَهَّارِ، الَّذِي فَوَّضَ الْإِبْنَ الْمَحْبُوبَ إِلَى الْكُفَّارِ؟ وَمَا خَفَّفَ عَذَابَهُ كَالرَّحْمَاءِ الْأَخْيَارِ، بَلِ أَلْقَى عِبَادَهُ فِي جَهَنَّمَ لِأَبَدِ الْأَبَدِينَ. زَادَ الْعَذَابَ زِيَادَةً فَاحِشَةً مَكْرُوهَةً، ثُمَّ ادَّعَى أَنَّهُ قَتَلَ ابْنَهُ لِيُنَجِّيَ الْمَذْنُبِينَ رَحْمَةً، فَمَا هَذَا إِلَّا طَرِيقَ الظَّالِمِينَ الْمُرُورِينَ.

ثم نرجع ونقول إن البراهمة قد تركوا سبل الهدى، فلا تتبع خرافات قوم نوكى، واسأل الله أن يهديك إلى صراط الراشدين. ألا ترى أنهم جمعوا تناقضات في خيالهم، وأضحكوا الناس بخزعبيلاتهم، وجاءوا بإفك مبین؟ قد لزمهم من جهة عقيدتهم أن يدعوا ربهم بالتضرعات، ليفني كل حيوان من دون رجال يوجد تحت السموات، من بقر وجاموس وماعز وغيرها من الحيوانات، وكل امرأة زوجاً كانت لهم أو من الأمهات والبنات والأخوات، ليستخلص أرواح آبائهم من تناسخ ومن عذاب مهين^٥.

بل كان هذا الدعاء أهم مقاصدهم وأعظم مآربهم إن كانوا راسخين على عقيدتهم ومستيقنين. ولكنهم يدعون خلاف ذلك، وقد حثهم "ويدهم" على أن يدعوا ربهم يعطهم كثير^٤ من البقر والفرس ويجعلهم من المواشي متمولين.

و"الويد" مملو من مثل هذه الأدعية، كما لا يخفى على الذين قرأوا "الركويد" بالبصرة، وسمعوه من البراهمة متأملين. فلو كان "الويد" من عند الله، لما وجد فيه دعاء لا يتأتى إلا بفسق الفاسقين. وترى الهنود كيف يودون أن يكون لهم أفاطع من البقر والجاميس ويصرفون همهم إلى هذا الأمر مدبرين، فكأنهم يجبون أن تبقى الفاحشة إلى أبد الأبدین، بل يجب ويدهم أن لا يقطع أبداً سلسلة ذنب المذنبين.

وأما القول الأحسن الأقوم في هذا الباب، والحق القائم على أعمدة الصواب، فهو الذي بينه الله في الكتاب لقوم طالبين. وهو أن هذا العالم لا يدوم إلى أبد الأبدین، بل له انقطاع وانتهاء، وبعده عالم آخر يقال له يوم الدين. ولا يلقى نعماءه إلا الذي اختار الشدائد على النعماء، وآثر الآلام على الآلاء، وصبر على أنواع البأساء، لرضاء رب العالمين. فالذين وصلوا هذه السعادة، وبلغوا الشرف والسيادة، فهم قومان عند الرب المتان. منهم قوم يجاهدون في الله بأموالهم وأنفسهم، ويؤتون في سبيل الله كل أحبهم وأنفسهم، ويشرون نفوسهم ابتغاء مرضاة الله، ويؤثرون على أنفسهم ولو كان بهم خصاصة، ويبيتون لرهم سجداً وقياماً وباكين. ولا يُفِرطون في حظ أنفسهم، بل ينفقون أموالهم في مرضي الله، ويعيشون كالفقراء والمساكين. وقوم آخرون يتولى الله أمر نجاقهم، ويفعل بهم أموراً ما كان لهم أن يفعلوها لنجاة أنفسهم، فيصب عليهم مصائب وشدائد وأنواع النائبات، ويتليهم بنقص من الأموال والأنفس والثمرات، ثم يرحمهم بذلك، وينزل عليهم صلواته وأنواع البركات، كما ينزل على أهل الباقيات الصالحات، ويلحقهم بقوم محبوبين. وتُحسب تلك الآفات عبادة منهم، ومجاهدة من عند أنفسهم بما صبروا عليها مستقيمين. فيبلغهم الله مقامات بلغها قوم

ويركب كل فرس أووظفة القوائم هيكلاً، ويسبق كل ألدّ ذي حنق ويشابه العنّدل، ويُنفد أيام العمر كخليع الرّسن مديد الوسن، يباعد داره عن دار أهل الصّلاح، ويثافن بأهل الفسق والطلاح، لا يحلّ مسجداً بل يطلب عسجداً، ويميل إلى ناجود وباطئة، مملوءة من صهباء محرّرة، في حلقة ملتحمة، ونظارة مزدحمة. يتخذ دنياه صنماً ففيه يرغب، وبها يكلف وعليها يكلب، وفيها يتنافس في كل حين، ولا يتزود من العقبى والدين. يذهب عمره في اكتناز الذهب، وتطلع

زاهدون صالحون وحزب عابدون مرتاضون، ويرضى عنهم كما رضى عن قوم يعبدونه ويؤثرونه ويجعلهم فائزين.

ويختار لكل ما صلح لنفسه، وهو يعلم مصالح المخلوقين. فما بقي محل اعتراض في هذا المقام، فإنهم وجدوا جزاءهم على الآلام، وأصابهم حظ كثير وأعطوا نعمًا غير محدودة من الفضل التام، ودخلوا في مقعد صدق كالأبرار الكرام، ووصلوا اللذات الأبدية فرحين. وورثوا حنة لا تنقطع نعماًؤها ولا تنفد آلاؤها، ووجدوا نعماء أبدية بنصب أيام قلائل، ودخلوا فردوس ربهم خالدين. وما هذه الدنيا إلا طرفة عين تنقضي مرارتها وحلاوتها، وتنعدم نضارتها وطراوتها، ولا تبقى لذتها ولا عقوبتها، فلا تتمايل عليها أعين العارفين. هذا ما ألهمني ربي فخذها وكن من الشاكرين. منه.

① سهو، والصحيح "تخالف". (الناشر)

② سهو، والصحيح "وتجعل". (الناشر)

* نوت: أعجبتني عقل البراهمة، أتمم جمعوا التناقض في العقيدة، يعتقدون بوجود العذاب على سيئات سابق الزمان، ثم يدعون ربهم لكشف العذاب عنهم عند المكاره والأمراض والخسران، بل بعضهم يدعون بالإصرار، ويجلسون في موقد النار، بكدّ وتعب، في هواجر ذات لب، ولا يفكرون في هذا التناقض كالعاقلين.

③ سهو والصحيح: "بديهية". (الناشر)

④ نوت: إن كان التناسخ هو الحق فيجب أن يجتنب التزويج كل من تمسك بهذه الاعتقادات، لعل النساء المنكوحات كن بناقم أو أخواتهم أو أمهاتهم أو أمهات الأمهات. منه

④ سهو والصحيح: "كثيراً". (الناشر)

الشحُّ على قلبه كذات اللهب، ومن كلِّ طرف يعطف عليه القلوبُ، ويُسنَى له المطلوب، ولا تعطّلُ قدوره ولا جعلها، ولا ينصاع أيامه ولا إقبالها، ويُذبُّ جُحاله، ويبارك له زُلاله، لا يرى يوم الحرمان في النعماء، ولا ينحو بختُه نحو الانكفاء، مع أنه ينفذ عمره في الفحشاء. لا تسقط عليه صاعقة، ولا تلدغه حيّة، ولا يمحي اسمه من الأرضين، بل يكثر أولاده، ويجمع حوله أحفاده. يملك الصدرَ في كل ناد محشود، ومحفل مشهود، ويُحسب من بدور المحافل، ورؤوس الأسافل، ويقوم خدّمه عند رأسه، حتى يهبّ من نعاسه، ويأكل ويشرب حتى يكون بطنه كالقبة، ويشرب الحلبَ ملءَ العُلبَة، ولا يأخذه توخُّمٌ ولا يكون من المبطونين. يركب على كل مطيّةٍ وطِيّةٍ، ويكون له تنعمه كعطيّة، ويشغفه الأملاك والغلمان، ولا يدري ما الإيمان. لا يغادر صغيرة ولا كبيرة، ولا يُثنى عليه خُلُقًا وسيرة، ومع ذلك يكون مرجع الخواصّ والعوامّ، ويصافونه بالحبّ التامّ، حتى يكون قبره بعد موته معتمراً الزائرين، وتتعهدها صباح ومساءً زُمُرُ المعتقدين.

وما قام دليل على كَوْرِ هذا الإنسان، وحوَرِ الرجال الذين سمعتَ ذكرهم في سابق البيان، ولا يُدرى كيف وقع قوم في يد النخّاسين، وآخرين دخلوا في المنعمين.

فهذه أسرار لا تبلغ الأنظار منتهاها، ولا تدري الأفكار مغناها، فإذا وجدتَ هذه المعضلات في أفعال الله فكيف لا يوجد مثلها في أقوال الله؟ ما لك لا تقيس أقوال الحكيم على أفعال الحكيم؟ مع

أهّما كالمرايا المتقابلة، وكالتوأمن في المشاكلة، فلا بدّ فيهما من وجود المناسبة، وتحقق المشاهدة. فلا تجاوز الحد الذي يسّني الأمر المعضل، ولا تردّ الأمر الصحيح الذي يجب أن يُقبَل، ولا تكن من المتعصبين.

يا عباد الله، اسمعوا، ثم فكّروا ثم اقبلوا إن كنتم طالبين. قد مات نبي الله عيسى، وأخبرنا عن موته خيرُ الخلق وسيّد الورى، ثم شهد على موته كثير من أهل العلم والنهى، كما شهد شاهدٌ عند وفاة نبينا المصطفى، أعني خليفة الله الصديق الأتقى. وكذلك ذهب إليه كثير من الأكابر والأئمة، وما جاء لفظ "رجوع" المسيح في نبأ خير البرية، بل لفظ "النزول" إلى هذه الأمة. وشتان ما بين الرجوع وبين النزول عند أهل المعرفة. فاتقوا الله يا معشر المؤمنين، واطلبوا الحق يا حزب الصالحين.

واعلموا أن قُرب الله ليس إرثًا مقبوضا لأحد، بل تداولُ هذه الأيام من أمر رب صمد، يلقي الروح على من يشاء، وكذلك تقتضي العظمة والكبرياء. أنتم تجادلونه على ما فعل أو تقومون محاربين؟ فكّروا بفكر لا يشوبه زيغ ولا ميل، وطهّروا قلوبكم من كل تعصب ولا يُذهّبكم سيل. أروا تقواكم تقواكم، يا أبناء المتقين. واعلموا أن الله قد أقامني وبعثني وكلمني، فاتقوا أن تحاربوا الله متعمدين. لا فُلكَ في يومي هذا إلا فُلكي، وإن يدي هذه فوق كل يد تبغى مرضاة ربي، فلا تنبذوا الحق بعد ظهوره، ولا تجعلوا أنفسكم من المسئولين.

وبعزة ربي وجلاله، لستُ بكافر ولا معتدٌ من أقواله ولا مرتدٌ ولا من الملحدين. بل جاءكم الحق فلا تُعرضوا عن الحق كارهين. وقد تقوى مذهبنا بتظاهر الأحاديث والفرقان، ثم بشهادة الأئمة وأهل العرفان، ثم بالعقل الذي هو مدار التكليف الشرعية، ثم بالإلهام المتواتر اليقيني من حضرة العزة، فكيف نرجع إلى الظن بعد اليقين؟ بل نحن أوينا إلى الركن الشديد، واعتصمنا بحبل الله المجيد، وما جئنا بمحدثات كالمبتدعين.

وقد علمتم أن المسيح الموعود، يكسر الصليب المعضود، فهذا هو الزمان إن كنتم موقنين. أما ترون كيف يُعلَى الصليب، وكيف تُفشَى في شأنه الأكاذيب، وإلى أي حدود بلغ الأمر، وكثر الخنزير والخمر، وديسَ الإسلام تحت أقدام المُعَوِّين المفسدين؟ أليس في أحاديث خير الكائنات، وأفضلِ الرسل ونُخبةِ مخلوقات، أن المسيح الموعود لا يجيء إلا عند غلبة الصليب وفتنها المواجهة في الجهات؟ فهذا هو الأصل المحكم لمعرفة وقت المسيح ومن أعظم العلامات. فإن كنتم تظنون أن المسيح ما جاء على رأس هذه المائة، وفتنَ النصرى لم تبلغ إلى غايتها المقصودة، فلزمكم أن تعتقدوا بامتداد هذه الفتن إلى رأس المائة الثانية، أو على رأس مائة أخرى من المثين الآتية البعيدة. فلو كان عمر فتن النصرى إلى هذه الأزمنة الطويلة، فما بال الإسلام إلى تلك المدة يا معشر المتفرسين؟

أرضيتم أن تتزايد فتن الدجالين القسيسين وتمتدّ إلى مائتين أو مئتين؟ فإن غلبتهم ضروري إلى أيام ظهور المسيح، كما جاء بالبيان

الصريح، في أبناء خير المرسلين. فما تأمرون في هذه القضية؟ أترضون بأن يمهلهم الله لإغواء الناس إلى تلك المدى الطويلة، ويُجّاح الإسلام من أصوله المباركة، ولا يبقى أحد على وجه الأرض من المسلمين؟

أيها الناس اعلّموا أن وقت ظهور المسيح عند الله هو وقت ظهور فتن الصليب، ولأجل ذلك قيل هو يكسر الصليب، فتدبروا كالمستدلّ اللبيب، وقوموا لله شاهدين. ثم من المسلّمات* الأمة المرحومة، أن المسيح لا يجيء إلا على رأس المائة، فهذا الرأس بزعمكم قد انقضى خاليا ومضى، وانقطع الرجاء إلى رأس مائة أخرى، ووجب بزعمكم أن تبقى فتن قسيسين أعداء الهدى، مع تزايدها إلى تلك المدى، فإن وقتها شريطة وقت المسيح كما أخبر سيد الورى. فهذا أعظم المصائب على الإسلام أن تعلقو شوكة الصليب إلى تلك الأيام البعيدة من الأنام، ويمتد زمان إغواء الخواص والعوام. فما لكم لا تتفكرون، وتبدّلون شُكْرَ نعم الله بالكفران وتنكرون؟ وجاءكم الحق في وقته فتعرضون، وتجعلون حظكم أن تكفروني ولا تتقون. أتكفرون عبد الله المأمور، وتقفون ما ليس لكم به علم من الله الغيور، وتتكلمون مستعجلين؟ أنسيتم ما جاء الناموس به أو كنتم قوما غافلين؟ أتوانون في أمر الدين، وأخذتم إلى الدنيا مُجدّين؟ وإذا مررتم بالحق مررتم مستهزئين إلا قليل من

* سهو، والصحيح: "مسلّمات". (الناشر)

الراشدين. وأكثركم ينظرون إلى أهل الحق بنظر السخط محقرين. وإن سخط الله أكبر من سخطهم وهو غيور لعباده المأمورين. وما كنتُ أن أفترى عليه، إنه ربي أحسن مثوأي، وإنه لا يجهل المفترين. وأنتم تعرفون سنن الله ثم تنقلبون منكرين. وتدرسون كتابه ثم لا تفهمون أيام الصادقين. فضلكم الله بعقل ودراية، وفراسة مانعة من غواية، فالحجة عليكم أتم من أحبابكم، وذنبُ الأُميين والمحجوبين كله على رقابكم، إن كنتم معرضين. وإني قد بلغتُ كما أمرت، وصدعتُ بما أُلهمتُ، فالآن لا عذر لجاحد، ولا محلّ قولٍ لمعاند، وظهر الأمر وحصحص الحق وقطع الله دابر المرتابين. ما بقي الأمر مرموزاً مكتوماً، وصار المستور مكشوفاً معلوماً، فلا تكتموا الحق بعد ظهوره إن كنتم صالحين.

ولا يختلج في قلبك أن العلماء ينتظرون نزول المسيح من السماء، فكيف نقبل قولاً يخالف قول العلماء؟ فإن وفاة المسيح ثابت بالآيات المحكمة القاطعة، والآثار المتواترة المتظاهرة، فالأمر الذي ثبت بتظاهر الأحاديث والقرآن، واليقين والبرهان، لا يبلغ شأنه أمرٌ يؤخذ من ظنون لا من سبل الإيقان، ولا يخلو من أوساخ مسّ يد الإنسان، فالأمن كل الأمن في قبول أمر تظاهر فيه الحديث والفرقان، والعقل والوجدان، وله نظائر في كتب الأولين. فإن النزول على طريق البروز قد سلّم في الصحف السابقة، وأما نزول أحد بنفسه من السماء فليس نظيره في الأزمنة الماضية. أما سمعتَ كيف أوّل عيسى عليه السلام نبأً نزول إيليا عند السؤالات، وصرّفه عن الحقيقة إلى

الاستعارات؟ واليهود أخذوا بظاهر النصوص وما مالوا إلى التأويلات، بل كفروا المسيح على تأويله ورموه بالتكذيبات، وقالوا ملحد يصرف النصوص عن ظواهرها ويُعرض عن البيّنات، فغضب الله عليهم وجعلهم من الملعونين. فاتقوا جُحْرَ اليهود والقول المردود، واتقوا موطئ قدم الفاسقين، واقبلوا ما قال عيسى من قبل وفي هذا الحين. إن مثل نزول عيسى في هذا الوقت الأغسى، كمثل نزول إيليا فيما مضى، فاعتبروا يا أولي الأبصار، ولا تختاروا سبل الأشرار، ولا تخالفوا ما بين الله على لسان النبيين.

وأما ما جاء في حديث خير الأنبياء، من ذكر دمشق وغيره من الأنبياء، فأكثره استعارات ومجازات من حضرة الكبرياء، وتحتها أسرار في حلال لطائف الإيماء، كما مضت سنة الله في صحف السابقين. ثم من الممكن أن نزل بساحة دمشق أو أحد من أتباعنا المخلصين، وما جاء في الحديث لفظ "النزول من السماء" ليرتاب أحد من المرتابين. أو لم تكفكم في موت المسيح شهادة الفرقان وشهادة نبينا المصطفى رسول الرحمن؟ فبأي حديث تؤمنون بعدهما يا معشر الإخوان؟ ما لكم لا تفكرون كالمحققين؟ أعندكم سند من الله ورسوله خير الورى، في معنى التوفّي الذي جاء في القرآن الأزكى، فأنتم تتكثرون على ذلك السند وتسلكون سبل التقى، أو تؤولونه من عند أنفسكم ومن الهوى؟ فإن كان سند فأخرجوه لنا إن كنتم صادقين. ولن تستطيعوا أن تأتوا بسند، فلا تُخلدوا إلى فند، إن كنتم متقين. وإياكم والتفسير بالرأي ولا تتركوا الهدى،

فتؤخذون من مكان قريب ولا يبقى لكم عذر ولا حجة أخرى،
فما لكم لا تخافون يوم الدين؟

وأما نحن فما نقول في معنى التوفّي إلا ما قال خير البريّة،
وأصحابه الذين أوتوا العلم من منبع النبوة، وما نقبل خلاف ذلك
رأيٍ أحدٍ ولا قول قائل، إلا ما وافق قول الله وقول خير المرسلين.
وإذا صحّص الحق في معنى التوفّي من لسان خاتم النبيين، وثبت أن
التوفّي هو الإمامة والإفناء، لا الرفع والاستيفاء، كما هو زعم
المخالفين؛ فوجب أن نأخذ الحق الثابت بأيادي الصدق والصفاء،
ولا نبالي قول السفهاء والجهلاء، ونؤوّل كل ما خالف الأمر الثابت
بالنصوص والبراهين، ولا نقدّم الظنون على اليقين، ولا نؤثر الظلمة
على الأنوار، ولا قول المخلوق على قول الله عالم الأسرار. أنترك
البيئات للمتشابهات، أو نضيع اليقينيّات للظنيّات؟ ولن يفعل مثل
هذا إلا جهول أو سفيه من المتعصبين.

ألا ترى أن نزول المسيح عند منارة دمشق يقتضي أن ينزل هو
بنفسه عند تلك البقعة، وذلك غير جائز بالنصوص القاطعة المحكمة.
ولا شك أن اعتقاد نزول المسيح عند ذلك المكان يخالف أمر موته
الذي يفهم من بينات نصوص القرآن. ولأجل ذلك ذهب الأئمة
الاتقياء إلى موت عيسى، وقالوا إنه مات ولحق الموتى، كما هو
مذهب مالك وابن حزم والإمام البخاري، وغير ذلك من أكابر
المحدثين، وعليه اتفق جميع أكابر المعتزلين. وقال بعض كرام الأولياء
إن حياة عيسى، ليس كحياة نبينا بل هو دون حياة إبراهيم

وموسى، فأشار إلى أن حياته من جنس حياة الأنبياء، لا كحياة هذا العالم كما هو زعم الجهلاء. واعلم أن الإجماع ليس على حياته، بل نحن أحق أن ندعي الإجماع على مماته كما سمعت آراء الأولين. وتعلم أن أكثر أكابر الأمة ذهبوا إلى موته بالصراحة، والآخرون صمتوا بعد ما سمعوا قول تلك الأئمة، وما هذا إلا الإجماع عند العاقلين. ثم تعلم أن كتاب الله قد صرح هذا البيان، فمن خالفه فقد مان، ولا نقبل إجماعا يخالف القرآن، وحسبنا كتاب الله ولا نسمع قول الآخرين. ومن فضل الله ورحمته أن الصحابة والتابعين، والأئمة الآتون بعدهم ذهبوا إلى موت عيسى، ورآه نبينا عليه السلام ليلة المعراج في أنبياء ماتوا ودخلوا دارا أخرى، ورؤيته ليس بباطل بل هو حق واضح وكشف من الله الأعلى.

فما لك لا تقبل شهادة الرسول المقبول، ولا تقبل شهادة القرآن وترضى بالقول المردود كالجھول، ولا تنظر بعين المحققين. ثم لا يمكن لأحد أن يأتي بأثر من الصحابة أو حديث من خير البرية، في تفسير لفظ التوفي بغير معنى الإمامة، ولا يقدرون عليه أبدا ولو ماتوا بالحسرة، فأى دليل أكبر من ذلك لو كان في قلب مثقال ذرة من الخشية؟ فإن بحث الوفاة والحياة أصل مقدم في هذه المناظرات، فلما حصص صدقنا في الأصل ما بقي بحث في الفروع، بل وجب أن نصرها إلى معنى يناسب معنى الأصل، كما هو طريق الديانة والعدل، ولن نقبل معاني تنافي الأصل وتستلزم التناقض، بل نرجعها إلى الأصل المحكم كالمحققين.

وقال بعض المخالفين من العلماء المجادلين: إن معنى التوفي إماتة، وليس فيه شك ولا شبهة، فإنها* ثبت بلسان النبي وصحابته، وما كان لأحد أن يعصي بيان فوهته، بل فيه مخافة كفر ومعصية، وخوف نكال وعقوبة، وخسران الدين؛ ولكننا لا نقول أن عيسى عليه السلام تُوفِّيَ وصار من الأموات، ليلزمنا القول بالبروز في نبأ خير الكائنات، بل معنى الآية أنه سيُتوفَّى بعد نزوله، فلم يبق من الشبهات، وبطل قول المعارضين.

وأما جوابنا فاعلم أن هذا القول قد قيل من قلة التدبر والاستعجال، ولو فكّر قائله لندم من هذا القيل والقال، ولاستغفر كالمذنبين المفرطين. أما تدبر آية ﴿فَلَمَّا تَوَفَّيْتَنِي﴾* بالفكر والإمعان؟ فإنه نصٌّ صريح على أن عيسى مات في سابق الزمان، لا أنه يموت في حين من الأحيان، فإن الصيغة تدل على الزمان الماضي، والصرف ههنا كالقاضي.

ثم إن كنت لا ترضى بحكم الصرف، وتجعل الماضي استقبالا بتبديل الحرف، فهذا ظلمٌ منك ومن أمثالك، ومع ذلك لا يفيدك غلوُّ جدالك، وتكون في هذا أيضا من الكاذبين. فإن المسيح يقول في هذه الآيات: إن قومي قد ضلوا بعد موتي لا في الحياة، فإن كنت تحسب عيسى حياً إلى هذا الزمان في السماء، فلزمك أن تقرّ بأن النصراني قائلون على الحق إلى هذا العصر لا من أهل الضلالة

* سهو، والصحيح: "فإنه". (الناشر)

♣ المائة: ١١٨

والهواء. فأين تذهب يا مسكين، وقد أحاطت عليك البراهين، وظهر الحق وأنت تكتمه كالمتجاهلين.

أيها الغالي أتقِ سبلَ الغلواء، واتركِ طريق الخيلاء، ولا تُغضبِ الله بالمعصية، ولا تردِّ مَورِدَ المأثمة، وسارِعِ إلى التوبة والمعدرة، ولا تكن كالذي بسأً بأكل الجيفة، وما اكثرث لما فيه من العذرة، وفرِّ إلى الله كالمستغفرين.

وَحَفَّ قَهْرَهُ وَاتْرَكَ طَرِيقَ التَّجَاسُرِ	أَطْعَ رَبَّكَ الْجَبَّارَ أَهْلَ الْأَمْرِ
وَأَنْتِ تَأْذَى عِنْدَ حَرِّ الْهَوَاجِرِ	وَكَيْفَ عَلَى نَارِ النَّهَابِرِ تَصْبِرُ
كَمَلَمَسِ أَفْعَى نَاعِمٍ فِي النَوَاطِرِ	وَحُبُّ الْهَوَى وَاللَّهُ صِلٌ مَدْمَرٌ
غَيُورٌ عَلَى حُرْمَاتِهِ غَيْرِ قَاصِرِ	فَلَا تَخْتَرُوا الطَّغْوَى فَإِنَّ إِيَّانَا
فَتَرَجَعَ مِنْ حُبِّ الشَّرِيرِ كَخَاسِرِ	وَلَا تَقْعُدَنَّ يَا ابْنَ الْكِرَامِ مُمْفَسِدٌ
فَإِنَّ وَدَادَ اللَّمَمِ إِحْدَى الْكِبَائِرِ	وَلَا تَحْسَبَنَّ ذَنْبًا صَغِيرًا كَهَيِّنِ
وَمَوْتُ الْفَتَى خَيْرٌ لَهُ مِنْ مَنَاقِرِ	وَآخِرُ نَصْحِي تَوْبَةٌ ثُمَّ تَوْبَةٌ

أيها الصلحاء! إنني بلغتكم الحق لإتمام الحجّة، ولو كان فيه بعض المرارة، فتدبّروا.. نصركم الله.. إن الله ينصر المتدبّرين. ولا يختلج في قلبكم أن المسيح الموعود يُحارب الكفار، ويقتل الأشرار، ويخرجكم كملوك مقتدرين. وليست ههنا هذه القوة، ولا العساكر والشوكة، وسطوة السلاطين؟

فاعلموا أن هذه الحكايات والروايات ليست بصحيحة، ويعرف سقمها كلُّ من تفكّر بسلامة قريحته، ويتدبّر كتب المحدثين. وأنتم

تعلمون أن صحيح الإمام البخاري أصح الكتب بعد كتاب الله الفرقان، وقد جاء فيه أن المسيح "يضع الحرب" ففكروا بالإمعان. فإن هذه الفقرة وأمثالها تشفيكم وتُخرج شكوك الجنان، لأنها تدلُّ أن المسيح لا تحارب* الناس، بل يُفحم الأعداء ويزيل الأوهام والوسواس، ويأتي بكلمات حَكَمِيَّة، وآيات سماويَّة، حتى يُخرج من الصدور أضعافها، ويقتل شيطانها، ولكن لا بسيف ورمح وقناة، بل بحربة من سموات، ويستفتح بتضرعات وأدعية، لا بسهام وأسنة، ولأجل ذلك لا يحارب يأجوجَ ومأجوجَ، بل يسأل الله أن يعطيه من لدنه الغلبة والعروج، فيكون في آخر الأمر من الغالبين. فالقول الذي يخالف هذا الحديث الصحيح والخبر الصحيح مردود وباطل ولا يقبله إلا جاهل من الجاهلين.

ثم اعلّموا أن قتل الناس من غير تفهيمٍ وتبليغٍ وإتمامِ حجةٍ أمرٌ شنيع لا يرضى به أهل فطنة، ولا نور فطرة، فكيف يُعزى إلى الله العادل الرحيم، والمثان الرؤوف الكريم؟ ولو كان هذا جائزاً لكان أحقَّ به سيدنا خير البرية، وقد سمعتم أنه صبر مدةً طويلة على تطاول الكفرة الفجرة، ورأى منهم كثيراً من الظلم والأذى، وأنواع الشدة والصعوبة، حتى أخرجوه من البلدة، ثم أهرعوا إليه متعاقبين مُغاضبين بنية القتل والإبادة، فصبر صبراً لا يوجد نظيره في أحد من رُسل حضرة العزة، حتى بلغ الإيذاء منتهاه، وطال مداه، فهناك

* سهو، والصحيح: "يحارب". (الناشر)

نزلت هذه الآية من الله السميع الخبير: ﴿أُذِنَ لِلَّذِينَ يُقَاتِلُونَ بِأَنفُسِهِمْ ظُلْمًا وَإِنَّ اللَّهَ عَلَىٰ نَصْرِهِمْ لَقَدِيرٌ﴾^٥

فانظروا كيف صبر رسول الله وخير الرسل على ظلم الكفرة إلى برهة من الزمان، ودفع بالحسنة السيئة حتى تمت حجة الله الديان، وانقطعت معاذير الكافرين. فاعلموا أن الله ليس كقصاب يعبط الشاة بغير جريمة، بل هو حلیم عادل لا يأخذ من غير إتمام حجة، وهو الذي أرسلني من حضرته العلية، فإياكم وحجب الجهل والعصبية.

وكم من العلماء والصلحاء اتبعوني مع كمال العلم والخبرة، وكفروا ولعنوا وأوذوا بأنواع الفرية والتهمة، فاستقاموا بما أشرق لهم نور الحق والمعرفة، وصدقوا قولي مستيقنين، وآمنوا مصدقين غير مرتابين، وألّفوا كتباً ورسائل ليعلم الناس أنهم من الشاهدين. وترى نور الصدق يتلأأ في جباههم، وتخرج كلم الحكم من أفواههم، والاستقامة تترشح من سمئهم، والزهادة يُشاهد في وجوههم، لا يجترئون على المحارم ويخافون رب العالمين، وتنزل عليهم سكينه كل حين. زكى الله جوهر نفوسهم، وزاد عرفانهم، وجلّى مرآة إيمانهم، وسقاهم كأس صدق وعفة، وأعطاهم أنواع علم ومعرفة، وأدخلهم في عباده الصالحين. فقاموا لله لإطاعتي، وتركوا إرادتهم لإرادتي، وخالفوا لي أزواجهم وأحبابهم، وأبناءهم وآباءهم،

^٥ الحج: ٤٠

وجاءوني تائبين. إني من قوم أثني عليهم ربي وأهمني وقال: "تَرَى أَعْيُنَهُمْ تَفِيضُ مِنَ الدَّمْعِ، يُصَلُّونَ عَلَيْكَ. رَبَّنَا إِنَّا سَمِعْنَا مُنَادِيًا يُنَادِي لِلْإِيمَانِ فَاْمَنَّا. رَبَّنَا فَآكُتُبْنَا مَعَ الشَّاهِدِينَ."

فهم مني وأنا منهم، إلا قليل من الغافلين، فإنهم لحقوا بنا بألسنتهم لا بقلوبهم، أو أمحلوا بعد شؤبوبهم، والله يعلم ما في صدور العالمين. فطوبى للذين سمعوا وصايا الحق واستقاموا عليها وما سمعوا بعد قول نساءهم أو أبنائهم أو عشيرتهم، وما صاروا كالكسالى بل زادوا في اليقين.

فالحاصل أن الرشد قد تبين، وأظهر الله الحق وبيّن، وأشرقت أيام كانت تنتظرها الأمم وترجّأها الفرق، وكل أمر موعود حان، وحسف القمر والشمس في رمضان، ورأيتم أن القلاص تُركت، والعشار عطلت، والبحار فُجرت، والصحف نُشرت، ويأجوج ومأجوج وأفواجهما أُخرجت، والجبال دُكت، ومُقدّمات الساعة ظهرت، والفتن كملت، والأرض زُلزلت، والسماء انفجرت، فاتقوا الله ولا تكونوا أول المعرضين.

وقد تفرّدت بفضل الله بكشوف صادقة، ورؤيا صالحة، ومكالمات إلهية، وكلمات إلهامية، وعلوم نافعة، وزادني ربي بسطة في العلم والدين. وأرسلني مجدداً لهذه المائة، وسماني عيسى نظراً على المفاسد الموجودة، فإن أكثرها من قوم مسيحين.

ومن جاءني بقلب سليم وثية صحيحة، وإخلاص تام وإرادة صادقة، ومكث عندي إلى مدة، فيكشف الله عليه سرّي في صحبتي،

وُيريه من بعض آياتٍ وعجائبٍ لإراءة منزلتي، إلا الذين يجيئونني غافلين منافقين، ولا يطلبون الحق كالخاشعين التائبين، فأولئك الذين بعدوا مني ولو كانوا قريبين. رضوا بالبعد والحرمان، وما أرادوا أن يُعطوا حظاً من العرفان، وما حملهم على ذلك إلا فساد نياتهم، وقلة مُبالاتهم، وغفلتهم في أمر الدين. والحق والحق أقول، إن أحداً من الناس لا يراني، إلا بعد ترك الأهواء والأمانى، وليس مني من يقول: "أبنائي ونسواني، وبيتي وبستاني"، وإنه من المحجوبين. وإني جئت قومي لأمنعهم من مساوئ الأخلاق وشُعب النفاق، وأريهم طريق المخلصين الموحدّين.

ولا دينَ لنا إلا دين الإسلام، ولا كتابَ لنا إلا الفرقان كتاب الله العلام، ولا نبيّ لنا إلا محمدٌ خاتم النبيين ﷺ وبارك وجعل أعداءه من الملعونين. اشهدوا أنّا نتمسك بكتاب الله القرآن، ونتبّع أقوال رسول الله منبع الحق والعرفان، ونقبَل ما انعقد عليه الإجماع بذلك الزمان، لا نزيد عليها ولا ننقص منها، وعليها نحيا وعليها نموت، ومن زاد على هذه الشريعة مثقال ذرّة أو نقص منها، أو كفر بعقيدة إجماعيّة، فعليه لعنة الله والملائكة والناس أجمعين.

هذا اعتقادي، وهو مقصودي ومرادي، ولا أخالف قومي في الأصول الإجماعية، وما جئتُ بمحدثات كالفرق المبتدعة، بيد أني أرسلتُ لتجديد الدين وإصلاح الأمة، على رأس هذه المائة، فأذكّرهم بعض ما نسوا من العلوم الحكميّة، والواقعات الصحيحة الأصلية. وجعلني ربي عيسى ابن مريم على طريق البروزات الروحانية

لمصلحة أراد لنفع العامة، وإلتزام الحجّة على الكفرة الفجرة،
وليُكَمَّلَ نبأه وليُنَجِّزَ وعده ويُتَمِّمَ كلمته، ويُفحِّمَ قومًا مجرمين.

هذا دعواي وتلك دلائلي، ولن تجدوا زَيْعًا في دعواي ومسائلي،
وإن كتابي هذا لبلاغٌ لقوم طالبين. ففكروا يا علماء القوم، وفتشوا
الأمر قبل اللوم. يا عباد الله اسمعوا، واتقوا الله ثم اتقوا، وإني بلّغتُ
ما أمر به ربي، وما بقي الإخفاء. فاسمعي أيتها الأرض، واشهدي
أيتها السماء.

وما أخشى الخلق ومكائدهم، وأتبع الحق ولا أتبع زوائدهم،
وإني واثق بما وعد ربي، وهو مؤئلٌ كلِّ أَمَلِي وأرَبِي. إن الأرض
والسماء تتغيران، والصيف والشتاء ينقلبان، ولكن لا يتغير قول
الرحمن، ولا ينقلب مشيئته بمكر الإنسان، وإن مُحارِبِيه من
الخاسرين.

أيها الناس لا تُعْرِضُوا عن أيام الله وضيائها، ولا تغفلوا فحسراتُ
بعد انقضائها، ولا تَعْلُوا ولا تظلموا ولا تعتدوا إن الله لا يُحِبُّ
المعتدين. اتقوا الله يا معشر المسلمين والمسلمات، وإنما التقوى لهذه
الأيام والأوقات، وفكروا وقوموا فرادى فرادى، ثم فكروا كالأتقياء
لا كرجلٍ عَادَى، واسألوا الله مبتهلين طالبين.

وكيف رضي عقلكم وإيمانكم، ودرائتكم وعرفانكم، بأوهام لا
تجدون في كتاب الله أثرًا منها؟ وتتركون طرق السلامة وتُعرضون
عنها، ولا تتبَّعون أصلًا مُحَكَّمًا بَيْنَ الوقوع، وتأخذون بأنيابكم
صُورَ مسائلِ الفروع، مع أنها في أنفسها مملوءة من الاختلافات

والتناقضات، ثم لا يوجد تطابقها بالأصل الذي هو لها كالأهميات، وأين التطابق بل يوجد كثير من التباين والمنافاة. فانظروا كيف جمعتم في عقائدكم من أنواع الشناعة والتناقض والفرية، وأمدتم بجهلكم أعداء الملة وعداء الشريعة المقدسة، فهم يصلون على الحق مستهزئين.

وأما السلف الصالحون فما كانوا كمثلكم في الاعتقادات، ولا في الخيالات، بل كانوا يُفوضون إلى الله علم المخفيات، وكانوا متقين. وما كان جوابهم في هذه المسائل، عند اعتراض المعترض السائل، إلا تفويض الأمر المخفي إلى الله الخبير العليم. وكانوا يؤمنون إجمالاً ويُفوضون التفاصيل إلى الله الحكيم. فلأجل ذلك ما بحثوا عن تناقضات هذه الأنباء، وما أرادوا أن يتكلموا فيها قبل وقوعها خوفاً من جناح الزلة والاعتداء، وقالوا نؤمن بها ولا ندخل فيها وما كانوا على أمرٍ مُصرين.

ثم خلف من بعدهم خلف وفَيحُ أعوج، أضاعوا وصاياهم وسبلهم، وبدأ فيهم التعلّي والتموج، فتكلموا في أنباء الغيب بغير علم مُحترئين. وبحثوا عن أمور ما كان لهم أن يبحثوا عنها، فضلوا وأضلوا وكانوا قوماً عمين. أما ترى كيف نُحتوا من عند أنفسهم نزول المسيح من السماء؟ ولن تجد لفظ السماء في ملفوظات خير الأنبياء ولا في كَلِمِ الأوّلين.

وأما نفس النزول فهو حق ولا نجادلهم فيه، ولا نردّه عليهم بل إنّا نؤمن به كما يؤمنون وما نحن بمنكرين. وليس عندنا إلا

تسليمٌ في هذا الباب، ومن أنكّر فقد كفر بما جاء في الآثار والكتاب، وإنه من الملحدّين. بيد أننا نحمل هذا النزول على أمرٍ فيه أمنٌ من التناقضات، ونجاة من الاعتراضات، وهو النزول البروزي الذي قد جرت سُنّة الله عليه من زمن الأوّلين. فليس إنكارنا إلا من نزول المسيح بنفسه من السماوات، فإنه يخالف سُنن الله والبيّنات من الآيات، فإن القرآن فرض علينا أن نؤمن بوفاة المسيح* ونحسبه من الأموات، فالقول بحياة المسيح ورجوعه إلى دار الفانيات، يستلزم إنكار القرآن والمحكمات البيّنات، فلا يتكلم بمثل هذا إلا الذين هم غُلْفُ القلوب، وكالمحجوب ومن المعرضين. أترك لظنون واهية القرآن، ونبذ من أيدينا اليقين والعرفان، ونرجع إلى أفسد القول من أصلحه، ونُلحق أنفسنا بالجاهلين؟ ومن يتدبر آيات الله، ولا يُعْمي عينَ تميّزه من بيّنات الله، فلا بد له أن يؤمن بموت المسيح، ويقرّ بأن النزول على سبيل البروز الصريح، ويُعرض عن الظالمين.

أسمعتم قبل ذلك رجلاً ذهب من الدنيا ثم نزل بعد بُرهة من السماء؟ أتجدون نظيره في أحد من الأنبياء؟ وقد سمعتم كيف أوّل من قبل في نزول إلياس، يا أولي الأبصار والقياس. ورأيتم قوماً حملوا قصة نزول إيليا على ظواهرها، وكفّروا المسيح بحُبث النفس وأباهرها، وضربت عليهم الذلّة والمسكنة وجعلوا من الملعونين.

* نوت: جاء في بعض الأحاديث من رسول الله ﷺ بالتصريح أن عمره نصفُ عمرِ المسيح. قال صاحب الفتح: هذا حديثٌ صحيحٌ ورجاله ثقات. منه

وإن كنتم لا تؤمنون بموت عيسى يا معشر الإخوان، وترفعونه
حيًا إلى عرش الرحمن، فما آمنتم بكتاب الله الفرقان، فانظروا مَنْ
أحقُّ بالأمن والأمان، وَمَنْ اتَّبَع ظَنُونًا وترك سبل الإيقان. ثم أنتم
تُكفِّرون المسلمين وتكذِّبون الصادقين، وتطيلون الألسنة على أهل
الحق واليقين. أكان هذا طريق التقوى والمتقين؟

وقد سمعتم أنا قائلون بنزول المسيح، والمقرِّون به بالبيان
الصريح، وإنه حقٌّ واجب ولا ينبغي لنا ولا لأحد أن يُعرض عنه
كالمفسدين، أو يمتعض من قبوله كالمتكبرين. فإنه لا يُعرض عن الحق
إلا ظالمٌ معتدٌ خلاّب، أو فاسقٌ مُزورٌ كذاب، ويُعرف بقبوله قلبًا
توَّابًا. فالآن انظروا! أنحن نُعرض عن القبول أو كنتم معرضين؟
أتظنون أن المسيح ابن مريم سيرجع إلى الأرض من السماء؟ ولا
تجدون لفظ الرجوع في كَلِمِ سيِّدِ الرسل وأفضل الأنبياء. أألهمتم
بهذا أو تنحتون لفظ الرجوع من عند أنفسكم كالحائنين؟

ومن المعلوم أن هذا هو اللفظ الخاص الذي يُستعمل لرجل يأتي
بعد الذهاب، ويتوجّه من السفر إلى الإياب، فهذا أبعَدُ من أبلغِ
الخلْقِ وإمامِ الأنبياء، أن يترك ههنا لفظ الرجوع ويستعمل لفظ
النزول ولا يتكلم كالفصحاء والبلغاء، فلا تنظروا كلامي هذا
بنظر الاستغناء، ولا تنبذوه وراء ظهوركم كأهل الكبر والمراء، بل
فكِّروا كل الفكر بجميع قوة الدهاء، فإنَّ هذا أمرٌ جليل الخطب
عظيم القدر في حضرة الكبرياء، وقبوله بركة، وتسليمه فطنة
وسعادة، وردُّه بلاء على أهله المخدولين.

ومن العلماء من يقول إن لفظ التوفّي قد يجيء في لسان العرب بمعنى الاستيفاء، وهو المراد ههنا في كلام حضرة الكبرياء، وإذا طُلبَ منهم السند فلا يأتون بسند من الشعراء، وقد كفروا. بمعنى بيّنه خاتمُ الأنبياء، وما أتوا. بمعنى أبلغ منه عند الفصحاء، وما أثبتوا دعواهم بل نطقوا كالعالميين. وما أعطوا وُسْعَةً في هذا اللسان، ولا يعلمون إلا الحقد الذي هو تُراثهم من قديم الزمان. فيا حسرة عليهم! ما لهم من معرفة في العربية، وليس عندهم من غير الدعاوي الواهية، ومع ذلك لا يتناهون من القيل والقال، ولا يتركون نزاعهم بل يتصدّون لهذا النضال، ويقومون مع الجهل المحكم للجدال، وكذلك هتكوا أستارهم بأيديهم في هذا المقام، بما كانوا غافلين من موارد الكلام. سكتوا ألفاً، ونطقوا خلفاً، وما نبسوا بكلمة حكيمية كالعاقلين. أروا أنفسهم كمخاض، وظهروا كخلفّة، ثم إذا حان النتاج فما ولدوا إلا فأرة، أو أشوه وأصغرَ من فُويَسِّقة. هذا علمهم، وأفسدُ منها عملُ تلك العالمين. يأمرّون الناس بالبرِّ وينسون أنفسهم، ويقولون ما لا يفعلون. وإذا جُعِلوا حَكَمًا فلا يُقسطون، ويُحبّون أن يُحمّدوا. بما لا يعملوا*، وإذا صلّوا فصلّوا مُرائين. ويغتابون في المساجد ويأكلون لحم إخوانهم المسلمين، إلا قليل من الخاشعين.

وأما لفظ التوفّي الذي يُفتّشونه في اللسان العربية، فاعلم أنه لا يُستعمل حقيقةً إلا للإماتة في هذه اللهجة، سيّما إذا كان فاعله الله

* يبدو أنه سهو، والصحيح: "بما لم يعملوا" أو "بما لا يعملون". (الناشر)

والمفعولُ به رجلاً أو من النسوة، فلا يأتي إلا بمعنى قبض الروح والإماتة. وما ترى خلاف ذلك في كتب اللغة والأدبية [♦]، ومَنْ فتش لغات العرب، وأنضى إليها ركاب الطلب، لن يجد هذا اللفظ في مثل هذه المقامات إلا بمعنى الإماتة والإهلاك من الله رب الكائنات. وقد ذكر هذا اللفظ مراراً في القرآن، ووضعه الله في مواضع الإماتة وأقامه مقامها في البيان. والسرُّ في ذلك أن لفظ التوفي يقتضي وجود شيء بعد الممات، فهذا ردُّ على الذين لا يعتقدون ببقاء الأرواح بعد الوفاة، فإن لفظ التوفي يؤخذ من الاستيفاء، وفيه إشارة إلى أخذ شيء بعد الإماتة والإفناء، والأخذ يدل على البقاء، فإن المعدوم لا يؤخذ ولا يليق بالأخذ والاقتناء. وهذا من العلوم الحكّمية القرآنية، فإنه رجع القومَ إلى لسانهم المباركة الإلهامية، ليعلموا أن الأرواح باقية والمعاد حق، ولينتهوا من عقائد الدهريين والطبعيين. فلما كان الغرض من استعمال هذا اللفظ صرّفَ القلوب إلى بقاء الأرواح، فمعنى التوفي إماتة مع إبقاء الروح، فخذِ الحقَّ * وأتقِ طرقَ الجُنّاح. ولا يجادل في هذا إلا الجاهل الذي لا يعلم العربية، أو المتجاهل الذي يُغري من خبثه العامّة. ومن انتصب لإزراء هذا الكلام، وقام للتكذيب والإفحام،

♦ سهو، والصحيح: "الأدب". (الناشر)

* الحاشية: لما كان الملحوظ في معنى التوفي مفهوم الإماتة مع الإبقاء، فلأجل ذلك لا يُستعمل هذا اللفظ في غير الإنسان، بل يُستعمل في غيره لفظ الإماتة والإهلاك والإفناء. مثلاً لا يقال توفّي اللهُ الحمار، أو القنفذ والأفعى والفأر، فإن أرواحها ليست بباقية كأرواح الآدميين.

فعلية أن يعرض في هذا الباب شعراً من أشعار الجاهلية، أو كلاماً من كَلِمِ فصحاء هذه المِلَّة. وإن لم يفعلوا، ولن يفعلوا، ولم ينتهوا من الشرارة، فقد جمعوا لعنتين لأنفسهم بشامة النفس الأمّارة. اللعنة الأولى أنهم ما صدّقوا قولَ خير البريّة، وما اطمأنت قلوبهم بشهادة إمام المِلَّة، واللعنة الثاني ◆ أنهم فتنوا اللغة شاكّين، ثم رجعوا يائسين بالندامة التي هي تشابه عذاب الهاوية، ثم قعدوا مخذولين.

واعلم أن أحداً من رجال ذي غيرة، لا يقف متعمداً موقف مندمة، إلا الذي نزع عن نفسه ثوبَ حياءٍ وإنسانية، ورضي بكل تبعة ومعتبة، وألحق نفسه بالخاسرين المولومين. وما تُجادلونني في لفظ التوفّي إلا من السفاهة، فإني أعلم ما لا تعلمون. وإني تورّدتُ بحر العربية وتبحّرتُ، وعلوتُ شوايخها وتوغّلتُ، واجتنتُ ثمارها وتخبّشتُ، وفحصتُ كلام القوم وتصفّحتُ، فما وجدتُ لفظ التوفّي في كلامٍ أو شعر الشعراء، إلا بمعنى الإمامة مع الإبقاء، وما استعملوا في غيره إلا بعد إقامة القرينة والإيماء، وما جاءوا به في صورة كون الله فاعلاً إلا بهذا المعنى، ويعلمه كل أحد من علماء العرب من الأعلى إلى الأدنى؛ وإذا كتبتَ مثلاً إلى أحد من أهل هذا اللسان، أن الله توفّي فلانا من الأحاب أو الجيران، فلا يفهم منه هذا العربي إلا وفاة ذلك الإنسان، ولا يزعم أبداً أنه أنامه أو رفعه

◆ سهو، والصحيح: "الثانية". (الناشر)

بالجسم من ذلك المكان، بل يسترجع على موته كما هو عادة المؤمنين، فويل كل الويل للمنكرين.

أفتنحتون للمسيح معنى وللعالمين كلهم معاني أخرى؟ تلك إذاً قسمةً ضيزى. فما لكم لا يوقظكم نصيحة، ولا يُنبهكم صراحة، ولا ترجعون إلى الحق كالمتقين. أكفّرني المكفّرون مع هذا العلم واللياقة؟ أجادلوني بهذه البلاغة والطلاقة؟ فليموتوا متندّمين. ولا أظن أن يتندّموا.. إنهم قوم لا يُبالون لعن اللاعنين؛ إذا أفضت الواقعة، فكلُّ حزبي الراحة. أكبّوا على جارهم، وذهلوا عن دارهم، فهتك الله أستارهم، وجعلهم من المهانين. وسلّطني عليهم فاخترّفوا كالطير في الوُكنات، واقتنوا كالوعل عند التعاقبات، وعرضنا كلّكنا للمناظرات، فأهرعوا كالأوابد إلى الفلاة، وتصدّينا لهم لأنواع الدعوة، وما وضعنا عن كاهلنا عصام هذه القربة، وما كنّا لاغيين. نعب علينا كلُّ أعرّ ذي غواية، ونعق علينا كلُّ ابن داية، محروم عن دراية، وعوى كلُّ خليع خليع الرسن، ونبح كل كلب ولو كان كاليفن، فإذا قمنا فكانوا مديد الوسن، أو كانوا من الميتين.

لما رأى التوكى خلاصة أنضري
إن يشتموا فلقد نزعْتُ ثيابهم
هم يشتمون ولا أخاف لسانهم
نزلت ملامةً لائمي من حبه
يا لائمي دَع كلُّ لوم وانتظر
جلّت وصايانا هدى لكنّها
فرّوا وولّوا الدبر كالمتشور
وتركّتهم كالميت المتنكر
إني أرى أطفاف رب أكبر
مني بمنزلة المحب الموتر
سترى بروق الحق بعد تبصر
كبرت عليك وليتها لم تكبر

أيها الناس! تدبروا لطفة عين، ولا تهلكوا أنفسكم لمين. إن موت المسيح ثابت بالقرآن، ثم بالحديث، ثم بشهادة اللغة وأهل اللسان، ثم بالعقل والفراسة والوجدان، ثم بنظائر سابق الزمان، فلا يزيل الأمر الثابت كيد الإنسان. والنزول أيضاً حق نظراً على تواتر الآثار، وقد ثبت من طرق في الأخبار، فتعالوا إلى كلمة ترفع هذا التناقض من بين بعض الأحاديث وبين مجموعة أحاديث أخرى والفرقان، فهو البروز الذي ثابت في سنن الرحمن، ولا شك أنه يهب أنواع الاطمئنان. ولا ريب أننا إذا اعتمدنا على طريق البروز في معنى نزول المسيح، كما ذكر نزول إيليا بالتصريح، فحينئذ تنطبق العبارات، وترتفع الشبهات، وتطمئن قلوب الطالبين. ولولا هذا فلا سبيل إلى أن نعتقد مع القرآن بالآثار والأخبار، فالخير كل الخير في عقيدة البروز يا أولي الأبصار، وليس هذا بدعة بل قد مضت فيها نظائر من رب العالمين.

فاعلموا أيها الضانون ظن السوء والازدراء، والمهرعون إلى الجدل والمراء، أي ما أريد إلا خيركم من حضرة الكبرياء، وأقصد أن أنقلكم من خبت إلى العلياء، ومن ذات حفاف إلى حديقة النعماء، ومن ذات كسور إلى سبيل السواء، فهل أنتم تريدون خيركم أو كنتم من الآيين؟ أليس الزمان كليل أرخى سدوله، والدين كغريب فقد عزهوله؟ أتخافون عند قبولي أن تفقدوا ما حيز مغمماً، أو تضيعوا الفضل الذي صار بالنشَب توأماً؟ كلا.. إنه ظن

لا يليق بأهل العلم والمعرفة، والعزة كلها لله في هذه والآخرة. إن الرجال لا يخافون ولو ذُبحوا بالمُدَى، أو نُزِعَ عنهم ثوب المحيا. أما تسلّت عَمَياتكم إلى هذا الزمان؟ وما لي أجد كلَّ أحدٍ منكم أَلَوَى في الكلام والبيان؟ وتعلمون أنني ما جئت بمفتريات كأهل الفسق والهناات، وما فتحتُ عليكم باب البدعات، بل هو حسراتٌ عليكم بعد الممات. فأين آذان تسمعون بها؟ وأين أعين تبصرون بها؟ وأين قلوب تفقهون بها؟ وما لكم لا تتركون الخرافات المتدلّسة، ولا تقبلون الجواهر النفيسة؟ تمنعون المسلمين من المساجد، وتُعظّمون لديناكم أهل العَساجد. حصحص الحق فلا تقبلون، وتبيّن الرشد فلا ترجعون، وتُكفّرون أهل القبلة ولا تمتنعون، أموتون في يوم أو أنتم من الباقيين؟ كيف تجدون لذة الإيمان بهذه التعصّبات؟ وما بقي حلاوته بتكفير المؤمنين والمؤمنات. حسبتُم أعراضنا كفيءً، وتُغرّون علينا العوامَّ وتلقون إليهم شيئاً بعد شيء، وأفسدتم الناس بمكائدكم وتزويراتكم، وصرفتم قلوبهم عن الحق بخرافاتكم. فاعلموا أن إثم الأُمّيين عليكم يا معشر الخادعين. أحسبتُم تكفير المؤمنين أمراً هيئاً، وتكذيب الصادقين شيئاً خفيفاً، وهو عند الله عظيم؟ ولم تزالوا* كنتم مصرّين على الإنكار، وما شفقتُم وما خشيتُم أخذَ القهّار، حتى بلغ أمرنا إلى ما بلغ، وردّ الله عليكم دعواتكم، إنه لا يُحب قوماً مفسدين.

* يبدو أن "و" سقطت من هنا سهواً، والصحيح: "ولم تزالوا وكنتم مصرين". (الناشر)

أيها الناس، إني مُحَقِّقٌ صادقٌ في ادِّعائي، فإياكم ومِرائي، وإن كنتم لا تقبلون قولي، ولا تخافون صولي، ولا تهصرون إلى الهداية، ولا تنتهون من الغواية، فَتَعَالَوْا نَدْعُ أَبْنَاءَنَا وَأَبْنَاءَكُمْ وَنِسَاءَنَا وَنِسَاءَكُمْ وَأَنْفُسَنَا وَأَنْفُسَكُمْ ثُمَّ نَبْتَهَلْ فَنَجْعَلْ لَعْنَةَ اللَّهِ عَلَى الْكَاذِبِينَ، ونستفتح فيما وقع بيننا، ليُقضى الأمر، ويظهر الحق، وينجو عباد الله من قوم كاذبين. وإني أحضر برازَ المباهلة، مع كتاب فيه إلهاماتي من حضرة العزة، فأخذ الكتاب بيد التواضع والانكسار، وأدعو الله ربَّ العزة والاعتدار، وأقول:

يا رب، إن كنتَ تعلم أن كتابي هذا مملوءٌ من المفتريات، وليس هذا إلهامك وكلامك ومخاطباتك من العنايةات، فتوفني إلى سنة، وعذبني بعذاب ما عذبتَ به أحداً من الكائنات، وأهلكني كما تُهلك المفترين الكاذبين بأنواع العقوبات، لينجو الأمة من فتنتي وليتبين ذلتي على المخلوقات.

رب، وإن كنتَ تعلم أن هذه الكلمات كلماتك ومن الإلهامات، ولستُ بكاذبٌ عندك بل أنت بعثتني عند ظهور الفتن والبدعات، فعذب الذين كفروني وكذبوني ثم حضروا اليوم للمباهلة، ولا تُغادر منهم نفساً سالمةً إلى السنة الآتية، وسلط على بعضهم الجُدام، وعلى البعض الآلام، وأنزل على أبصار بعضهم بلاءً، وسلط على البعض صرعاً وفالجاً واستسقاءً، أو داءً آخر

وَتَوَفَّهِمْ مَعْدَبِينَ. وَابْتَلِ بَعْضَهُمْ بِمَوْتِ الْأَبْنَاءِ وَالْأَحْفَادِ وَالْأَخْتَانِ،
وَالْأَزْوَاجِ وَالْأَحْبَابِ وَالْإِخْوَانَ، وَعَلَيْكُمْ أَنْ تَقُولُوا آمِينَ.
فَإِنْ يَبْقِ أَحَدٌ مِنْكُمْ سَالِمًا إِلَى سَنَةِ فَأَقْرَبَ بِأَنْي كَاذِبٍ وَأَجِيئِكُمْ
بِعَجْزٍ وَتَوْبَةٍ، وَأَحْرَقَ كِتَابِي وَأَشْيَعِ هَذَا الْأَمْرَ بِخُلُوصِ نِيَّةٍ، وَأَحْسَبُ
أَنْكُمْ مِنَ الصَّادِقِينَ. وَأَمَّا دَعَاؤُكُمْ فَلْيَدْعُ كُلُّ أَحَدٍ مِنْكُمْ أَحْكَمَ
الْحَاكِمِينَ:

رَبَّنَا، إِنْ كَانَ هَذَا الرَّجُلُ كَاذِبًا فَأَنْزِلْ عَلَيْهِ نَكَالَكَ، وَتَوَفَّهُ إِلَى
سَنَةِ بَعْدَ ابْ مَهِينٍ. وَاجْعَلِ الرَّجْسَ عَلَيْهِ وَنَجِّ عِبَادَكَ مِنْهُ يَا أَرْحَمَ
الرَّاحِمِينَ. رَبَّنَا، وَإِنْ كَانَ صَادِقًا وَمِنَ الْحَضْرَةِ، فَأَنْزِلْ عَلَيْنَا رَجْسًا
مِنَ السَّمَاءِ إِلَى السَّنَةِ، وَلَا تُغَادِرْ مِنَّا أَحَدًا مِنَ الْمَبَاهِلِينَ. وَعَذِّبْنَا
وَمَزَّقْنَا وَأَهْلَكْنَا وَأَعْدَمْنَا، وَسَلِّطْ عَلَيْنَا آفَاتٍ وَأَمْرَاضٍ كَمَا تُسَلِّطُ
عَلَى الْمَفْسُودِينَ. وَعَلَيْنَا عِنْدَ خَتْمِ دَعَائِكُمْ أَنْ نَقُولَ: آمِينَ.
ثُمَّ عَلَيْكُمْ أَنْ تَقْدَمُوا بَيْنَ يَدَيْكُمْ قَبْلَ الْمَبَاهِلَةِ بِالِاسْتِخَارَةِ الْمَسْنُونَةِ،
وَتَلْتَمِسُوا فَضْلَ اللَّهِ بِتَضَرُّعَاتٍ بِهَذِهِ الْأَدْعِيَةِ:

رَبَّنَا إِنْ كَانَ هَذَا هُوَ الْحَقُّ فَلَا تَجْعَلْنَا مِنَ الْمَحْرُومِينَ. رَبَّنَا وَفَّقْنَا
لِنَقُومَ فِي سَبِيلِكَ وَلَا نَعْصِي الْحَقَّ وَلَا نَكُونُ مِنَ الْخَاسِرِينَ. رَبَّنَا
نَخَافُ أَنْ تُرَدَّ إِلَيْكَ بِوَجْهِهِ مُسَوَّدَةً، فَارْحَمْنَا رَبَّنَا، وَاهْدِنَا مِنْ لَدُنْكَ
سُبُلَنَا، وَافْتَحْ عَلَيْنَا، وَأَرِنَا طَرِيقَ الصَّالِحِينَ.

فقوموا في أواخر الليالي باكين، واسألوا ربكم متضرّعين، ولا تغلّوا في ظنونكم، ولا تيأسوا من أيام الله، إن أيام الله تأتي كالمفاجئين.

وآخر العلاج خروجكم إلى برازِ المباهلة، وعليكم أن لا تكون جماعتكم أقلّ من العشرة الكاملة، أو يزيدون ولو إلى ألف في تلك الساهرة، ليفتح الله بيننا وبينكم ويقطع دابر الفجرة، ويُنمّ الحجة على العالمين.

هذا آخر حيلِ أردناه في هذا الباب، فتدبّر وادعُ الله لطرق الصواب، ولا تقعد كالقانطين.

ألا يا أيها الحرُّ الكريمُ	تدبّر يَهْدِك المولى الرحيمُ
ولا تبخلْ ولا تقصدْ فسادا	أُتْطَفئ ما حضا الربُّ العظيمُ
وما جئنا الورى في غير وقتٍ	وقد هبّتْ لقارئها النسيمُ

من رجّع من قوله بعد ما نطق بالخطأ فله أجر عظيم في حضرة الكبرياء، ويُحشّر مع المتقين، وينال جزيل الثواب، وعظيم الأجر في دار المآب، التي لا موت بعد حياتها، ولا انقطاع لنعيمها ولذاتها. فمن قام ابتغاءً لمرضاة الله فله ثواب ذلك في ملكوت السماء، ويُكرّم في حضرة العزة ويُجزى بأحسن الجزاء. فعليكم يا معشر الإخوان، أن تسمعوا قولي لله الديان، وتجتنبوا سبل الطغيان، وإياكم والكبر والمبالاة، واتقوا الله واذكروا المجازاة، واتقوا سير أرباب الدنيا والمحجوبين.

ولا تقرؤوا كتابي هذا واجدين عليّ أو كارهين، وعسى أن تحسبوا أمرا على صورة والحقيقةُ خلاف تلك الصورة، وعسى أن تظنوا أمرا خلافَ حقيقة وهو عين تلك الحقيقة، فإنكم ما تدرّون لبَّ النواميس الإلهية، وتتكلمون مستعجلين غير مفكرين. انظروا كيف تهتمّون لأمر دنياكم، وإن نزل بلاء عليها فلا تصبرون على بلواكم، وتسعون حق السعي لتدفعوا ما آذاكم، وتنفقون لدفعه أموالكم وأوقاتكم وقواكم، وتتوجهون بكل فكركم ونهاكم، ولا تقعدون كالصابرين. فلما كانت عنايتكم بهذا القدر إلى أشياء فانية ذاهبة بعد وقت ومُهلة، فكيف تغفلون من الأمور الباقية الأبدية، التي توصل* فقدانها إلى النيران المحرقة؟ أتؤثرون الفانيات على الباقيات، وتريدون الحياة الدنيا وتنسون خلود الجنات؟

أيها الناس! زكّوا نفوسكم، واجتّبوا جذباتكم، وطهّروا خطراتكم ونيّاتكم، وانظروا إلى الحق متأمّلين. لا تخدعنكم أخبار باردة، وخرافات واهية، ولا ينبغي أن تلتفتوا إليها وتنبذوا كلام الله وراء ظهوركم غافلين.

وقد سمعتم أن موت نبي الله عيسى ثابت بكلام رب العالمين. والأحاديث ساكتة في رفعه الجسماني، وما في يديكم إلا الأماني، وما ثبت فيه أثرٌ من خاتم النبيين. وما نطق فيه رسول الله ﷺ بكلمة، ولا تفوهَ بلفظة واحدة. وتعلمون أن النزول فرعٌ

* سهو، والصحيح: "يوصل". (الناشر)

للصعود^٥، فلما لم يثبت الصعود فالنزول رجاء باطل، فلا تأخذوا بالقول المردود. وإن تُعرضوا عن نصيحتي، ولم تعملوا على وصيتي، فأخاف عليكم أن تُحسبوا في الذين يغمطون نعم الله ويقطعون ما أمر الله به أن يوصل، ويمدّدون أعناقهم جاحين. وما كنتُ بدعاً في

﴿الحاشية: الرفع الذي جاء في ذكر عيسى ﷺ في القرآن، فهو ليس رفع جسماني ولذلك قدّم عليه لفظ التوفي في البيان، ليعلم الناس أنه رفع روحاني كما جرت عليه سنة الله بعد موت أهل الإيمان، فإنهم يُرفَعون إلى الله بعد قبض الروح ويدخلون في نعيم الجنان فرحين. والآية نزلت ليقضَى بين اليهود والمسيحيين، فإن اليهود زعموا أن المسيح كان من الكاذبين وملعوناً وما كان من المقرّين المرفوعين. وقالوا إنه صُلب، والمصلوب لا يُرفَع إلى الله بحكم التوراة، بل يُلعن من حضرته ويُجعل من المردودين. وقال النصراني إنه كان ابن الله، فصُلب لإنحاء الخلق، ومُنع من الرفع في أول الأمر، ولُعِن وعُدب وأُدخِل في جهنم إلى ثلاثة أيام كالفاستق، ثم رُفِع إلى العرش وآواه الله إلى يمينه إلى أبد الأبد. فاليهود ذهبوا إلى تفريط وهمط وإهباط، والنصارى مع التفريط إلى إفراط، فبيّن الله ما كان أحقّ وأقوم في أمر عيسى، فقال إنه ما صُلب بل تُوفِّي بحتف أنفه وألحق بالموتى، ثم رُفِع كالمقرّين، من غير أن يُلعن ويُدخِل في اللظى.

فالخاص أن هذا قضاء من الله الأعلى، بين اليهود والنصارى، ليبرئ عبده من بهتان اللعن^٦ وعدم الرفع ويقضي بما هو أحق وأولى، فحكّم بينهم فيما اختلفوا فيه، وهو خير الحاكمين.

ولولا هذا الغرض فما كان وجه لذكر هذه القصة، بل لو فرّضت القصة على خلاف هذه الصورة، لكان لغوا كلها ومحل اعتراض على فعل حضرة العزة. ألم تكن أرض الله واسعة فيخفي المسيح في مغارة من المغارات، كما أخفى أفضل الرسل عند التعاقبات؟ ففكّر أي حاجة اشتدت لرفعه إلى السماوات؟ أحشى الله رُعبَ اليهود المخذولين، وظن أنهم يُخرجونه من الأرضين؟ ألا تعلم أن الله حكيم لا يفعل فعلاً إلا بقدر ضرورة ولا يتوجه إلى لغو بغير حكمة داعية؟ فأبي حكمة الجأ الله لرفع المسيح إلى السماء؟ أما وجد موضعاً في الأرض للإخفاء؟ ففكّر كالمبصّرين. منه

=====

﴿الحاشية: لولا هذا الغرض لكان ذكر التطهير لغواً بعد ذكر الرفع، فإن عدم الرفع الجسماني ليس بعيب واجب الدفع. منه

هذا الأمر وما جئت شيئاً إمرأ، فكيف تؤاخذونني وترهقونني عن أمري عُسراً؟ أعميت عليكم أقوال الأولين؟ بل هو نبأ عظيم كنتم عنه معرضين. لا تظلموا أنفسكم وأتوني بصفاء نية، يدرأ الله عن قلوبكم كل شبهة، وينزل عليكم أنوار سكينته.

وتعلمون أن فتن النصارى وغلوهم في الخزعبيلات، كانت تقتضي حكماً من رب السماوات، فالله الذي نجى المسيح من صليب اليهود، ورفعته إلى المقام الأعلى، أراد أن ينجي من صليب النصارى مرة أخرى، فأرسلني حكماً عدلاً لهذه الخطّة، وسماي باسمه لأكسر الصليب وأتم ما بقي منه من فرائض النصيحة، فكل ما أفعل كان عليه لو كان في قيد الحياة، وكذلك قدر عالم المغيبات. وجئت بعده على قدر جاء هو من بعد موسى، وإن في ذلك لآية لأولي النهي. ومن آيات الله أنه أخصى في عدد اسمي عددَ زماني، وإن شئت ففكر في:

غلام أحمد قادياني*

فذلك خاتم رب العالمين، وفيه إشارة إلى أنه جعلني لهذه الملة مجدد الدين، ولا يقبل العقل السليم أن يصمت الله الغيور عند هذه الفتن العظيمة، حتى لا يبعث مجددًا على رأس هذه المائة. أطمئن قلوبكم بأن يرى الله هذه البلايا تنزل على الأمة الضعيفة، ثم لا يتوجه إلى دفعها ولا لإزالة هذه الظلمة، ولا يبدو شيء من نصره

* لقد ورد في الأصل تحت هذه الكلمات: ١٣٠٠هـ، ويعني ذلك أن مجموع اسم حضرته هو ١٣٠٠ طبقاً لحساب الجمل، مما يشير إلى زمن بعثته عليه السلام. (الناشر)

حضرة الكبرياء، ولا تنزل رحمته عند كمال هذا البلاء، وتسبّ ذراري الشيطان أولياء الرحمن فرحين مطمئنين؟ ألا تنظرون كيف بلغت غشاوة الجهل منتهاها، وكيف نسيت كل نفس عقباها، إلا التي حفظها الله وحماها؟ ألا تشاهدون كيف زادت الملل الضالة في طغواها، ووقع الفتور في سفينة الحق ومجراها ومرساها؟ ألا يصرخ الوقت لمجدد الدين؟ ألم يأن للذين ظلموا أن يُنصروا من رب العالمين؟ أنتظرون وقت استئصال الإسلام، وقد وصل إلى شفا حفرة دين سيد الأنام؟ ما لكم لا تغتمون كالمواسين؟

أحاط الناس من طغوى ظلامٍ علامات بها عرف الإمام
فلا تعجب بما جئنا بنورٍ بدت عين إذا اشتد الأوام

أيأتي مسيحكم بعد تفضّر السماء واختلال النظام؟ ما لكم لا تعرفون الأوقات ولا تفكّرون في الأيام؟ ألا ترون أن الآفات نزلت، والآيات ظهرت، والمعاصي كثرت، والفتن تواترت، والمصيبة جلّت؟ أليست فيكم نفس مفكّرة، أو تحبّون الدنيا الخاسرة، أو يئستم من رحمة الحضرة الأحدية، أو رجعتم إلى الجاهلية، ورُدّتم في الحافرة؟ أتظنون أن الله ما بعث مجددًا لإصلاح هذه المفسّدة، على رأس هذه المائة؟ أو بدّل سننه عند هذه الفتن المهلكة؟ ألم يكن حاجةً إلى روح القدس عند كثرة الشياطين؟ فلا تميلوا كل الميل وانظروا كلم الله متدبرين. ألا ترون نيران الفتن وزمان المحن؟ وتسمعون ثم لا تسمعون، وتنادون ثم تصمتون، كأنكم مثمّ أو أغميّ عليكم

كالمصروعين. وإذا نطقتم نطقتم كالعادين، وإذا بطشتم بطشتم جبارين، وإذا ناظرتم فناظرتم بآراء أنحف من المغازل، وأضعف من الجوازل، وأحاطت بكم أخلاط الزمر من ذوي الغمر، فجعلتموهم كأنفسكم من الضالين. أعطيتهم مفاتيح الهداية، فاستبدلتم الغي بالرشد والدراية، وتمايلتم إلى الجهل كالمحبين.

ومنكم قوم أغروا عليّ العامة، ونددوا بأنه ترك الكتاب والسنة، ألا لعنة الله على الكاذبين المفترين، الذين يستمرون على غيهم، ولا يتناهون عن زهوهم وبعيهم، وما كانوا منتهين. وما ظلمونا ولكن ظلموا أنفسهم، وسقط المكر على وجوه الماكرين. أشاعوا جهلاتهم في الجرائد، وكادوا كالصائد، وجاءوا بزور مبين. ولما رأيت أنهم أخلوا كيناتهم، وقضوا من المفتريات لُبانتهم، أشعت ما أشعت كما هو فرض الصادقين، فأعرضوا عن نضالي، وفرّوا من عَسالي، وواروا وجوههم كالكاذبين.

أيها الناس! ارقعوا* على ظلعكم ولا تظلموا، وانتهوا ولا تفرطوا، واحذروا ولا تجترئوا، واذكروا الموت ولا تغفلوا، واذكروا آباءكم الغابرين. أتظنون أنكم تُتركون في الدنيا ولذاتها، ولا تُقادون إلى الحاقّة ومُجازاتها، ولا تُساقون إلى مالك يوم الدين؟ ما لكم لا تنتهجون مهجة الاهتداء، ولا تعالجون داء الاعتداء، وتمرون بالحقّ محقرين؟

* يبدو أنه سهو، والصحيح: "ارقأوا". (الناشر)

اعلموا أن فضل الله معي، وأن روح الله ينطق في نفسي، فلا يعلم سرّي، ودخيلة أمري إلا ربّي، هو الذي نزل علي وجعلني من المنورين. وكم من آيات كُشفتْ عليكم ثم تمرّون بها غافلين. ألا ترون أن الخسوف والكسوف ما كانا في قدرتي ولا قدرتكم؟ بل كان جمعهما في رمضان خلافَ مُنيتكم، فرأيتم الآيتين المذكورتين كارهين. فكأن الله عذبكم بما لا تهوى أنفسكم، فما فكرتم كالراشدين. ولو كان في قدرتكم لحولتم الشمس والقمر من مكان خسوفهما ونلتهم إلى السماء لتغيير صفوفهما لو كنتم قادرين. فسوّد الله وجوهكم ورضّ فوهكم، وما استطعتم أن تردّوا فعل الله فكُنستم نادمين.

أُتقسّمون أنكم رضيتم بهذا الفعل من الرحمن، وما جادلتموه بأنفسكم كالشيطان، وما أخذكم القبض كالغضبان؟ فأقسّموا إن كنتم صادقين. أُتقسّمون أنكم رضيتم بموت "آهم" بعد ما أخفى الحق وما أقسم؟ فأقسّموا إن كنتم صادقين. أُتقسّمون أنكم رضيتم بما أيدي ربي، وأكرمي وأعزّي، وزاد كل يوم حزبي؟ فأقسّموا إن كنتم صادقين. أُتقسّمون أنكم رضيتم بما أخزاكم ربي بجذائي، وما استطعتم أن تكتبوا شيئاً في العربية كإملائي؟ فأقسّموا إن كنتم صادقين. أُتقسّمون أنكم رضيتم بما قصرتم عن فهم القرآن، فما استطعتم أن تكتبوا مثل ما كتبتُ من معارف الفرقان، وما قدرتم أن تبارزوني في هذا الميدان؟ فأقسّموا إن كنتم صادقين.

وقد شهد صالح على صدقي من قبلي وقبل دعوتي، وقال إنه هو

عيسى المسيح الآتي، وسمّاني وسمّي قريبي، وقال لفتاه: هذا ما أُنبئتُ من ربي، فخذُ مني هذه وصيتي، وقال: إن العلماء يكفرونه ويكذبونه، فلا تقعد معهم وتذكر نصيحتي. فلما كبر فتاه وشاخ أدرك وقتي، فجاءني في وقت غربي، وقال: عندي لك شهادة فاسمع مني كلمتي، فروى ما سمع من شيخه بعين باكية، ودموع متحدرة، حتى هيج عبرتي، ثم أشاع كما أوصاه شيخه الولي هذا الخبر، وبلغَ حالفًا ومهللاً إلى كل أذن هذا الأثر، وأشعتُ بإيمائه رسالة مطبوعة، وأودعتها أخباراً مسموعةً، وزاحمه علماء تلك الخطّة، وكادوا كل كيد ليصرفوه عن هذه الشهادة، فقال: لا أكتمها أبداً ولا أتعامى بعد البصيرة، فأشاعها حق الإشاعة، وبلغها إلى الخواص والعامّة، ثم توفاه الله ورفعهُ إلى مقرّ المؤمنين.

فبينوا.. أتقسّمون أنكم رضيتم بهذه الآية من الرحمن، وما كرهتم وما غاضبتم في قلوبكم بالعدوان؟ فأقسّموا إن كنتم صادقين. أهذه كانت ثقتكم ودياناتكم أن شيخاً كبيراً من المسلمين روى هذه الرواية مُقسماً بالله ومهللاً فولّيتم معرضين؟ مع أن أشهاداً عدلاً من قومه شهدوا على أنه من الصالحين الصادقين المصلّين الصائمين الزاهدين. وكذلك نبّهكم الله كل مرة، فما تنبّهتم كالمسترشدين.

أتقسّمون أنكم رضيتم بما لم يسمع الله دعواتكم، وحفظني وعصمني وكرمني وأرغم أنفكم لسوء نيّاتكم؟ فأقسّموا إن كنتم صادقين. فإن كنتم تظنون أنكم على الحق ونحن على الباطل، فلم

يعذبكم الله بما لا ترضون به من الدلائل، وتتربصون علينا الذلة فتؤخذون فيها منحوسين. بل الله يكسر جبتكم في كل آن، ويُعلي عبده ببرهان، ويمزق أجياد المستكبرين. فما لكم لا تُرْفَتون بالاستغفار، ولا تدركون وقت الاعتذار، ولا تتوبون خائفين؟ وإني بزعمكم أحادع الناس وأضلّ الوري، وأفتري على الله وأترك سبل التقوى، وفي نفسي معها رزائل أخرى، وأنتم قوم مطهرون لا عيب فيكم ولا طغوى، ثم مع ذلك يخزيكم الله ويعذبكم بعذاب أذْفَى، فلا تقدرون على أن تردّوا عذابه ولا تأتونني معارضين. وإن الله قد أنزل عليّ غيثَ نعماءٍ مدرّارا ظاهرةً وباطنة، وأنعم عليّ في الأولى والآخرة، وفتح عليّ أبوابا من الإلهامات، وحدائق من المكاشفات، فمن يمكث عندي نحو أربعين يوما فأرجو أنه يرى شيئا منها، فهل لكم أن تعارضوا أو تُعرضوا عنها؟

وإن الله بشرني وقال: "يا أحمدُ أجيب كلَّ دعائك، إلا في شركائك"❶، فأجاب دعوات ضاق المقام عن الإتيان بذكر إجمالها، فضلاً عن إدراج تفاصيلها وكيفية كمالها، فهل لكم أن تعارضوني فيها أو تنقلبون معرضين؟

وإن الله بشرني في أبنائي بشارة بعد بشارة حتى بلغ عددهم إلى ثلاثة، وأنبأني بهم قبل وجودهم بالإلهام، فأشعتُ هذه الأنباء قبل ظهورها في الخواص والعوام، وأنتم تتلون تلك الاشتهارات، ثم

❶ الحاشية: لهذه الفقرة قصة لا يقتضي المقام ذكرها. منه

تمرون بها غافلين من التعصبات، وبشرني ربي برابع رحمة، وقال إنه يجعل الثلاثة أربعة، فهل لكم أن تقوموا مزاحمة، وتمنعوا من الإرباع المرْبَعين؟ فكيدوا كيدا إن كنتم صادقين. وقد كتبنا ذلك في اشتهار من قبل من سنين، فاقراؤه متأملين، إن في ذلك لآيات للناظرين. ثم كرر عليّ صورة هذه الواقعة، فبينما أنا كنت بين النوم واليقظة، فتحرّك في صلي رُوح الرابع بعالم المكاشفة، فنأدى إخوانه وقال: بيني وبينكم ميعاد يوم من الحضرة. فأظن أنه أشار إلى السنة الكاملة، أو أمد آخر من رب العالمين.

واعلموا أن الله ينصريّ في كل موطن، ويخزيكم من كل محتضن، ويردّ كيدكم عليكم يا معشر الكائدين. وإن كنتم تزدريني عيُنكم فتعالوا نجعل الله حكماً بيننا وبينكم. أتريدون أن يظهر مينا أو ميناكم؟ فتعالوا نُقِّم تحت مجاري الأقدار مباهلين، وإن كنتم تُعرضون عن المباهلة، فأتوني وامكثوا عندي إلى السنة الكاملة، لأريكم بعض آيات حضرة العزة إن كنتم طالبين. وإن كنتم تُعرضون عن رؤية هذه الآيات، فلکم أن تعارضوني في معارف القرآن والنكات، ولن تقدرُوا عليها ولو مَتَّم حاسرين. فإنه علم لا يمسه إلا الذي كان من المطهَّرين. فإن لم تفعلوا هذا فعارضوني في إنشاء لسان العرب، فإن العربية لسان إلهامية، لا يُكَمَّل فيها إلا نبي أو ولي من النُخب. وإن لم تبارزوا فيها، ولن تبارزوا، فاكتبوا كتابا وأكتبُ كتابا لإصلاح مفاسد هذه الأيام، وردّ النصارى وفرقٍ أخرى من عبدة الأصنام،

وإفحامهم بالبرهان التام، وعلينا أن لا نقول شيئاً من عند أنفسنا ولا أنتم من عند أنفسكم، إلا من كتاب الله العزيز العلام. ولن تفعلوا ذلك أبداً ولن تُعطوا عزّةً هذا المقام، فإن هذا فعلٌ من أفعال إمام الوقت ومُزيل الظلام، الذي أُيدَ بروح من الله وزيدَ بسطةً في العلم وأعطى بلاغة الكلام. وإن تغلبوا في أحد منها فلستُ من الله العلام. فإن أعرضتم عن كل ما عرضنا عليكم، فما بقي عذر لديكم، وشهدتم أنكم من الكاذبين. أتكذبونني من غير علم، ثم إذا دعوناكم ففررتم جاحدين غير مبالين؟

وذكرنا هذه الآيات تلذذاً بالنعم الرحمانية، وشكراً للتفضلات الربانية، ثم إتماماً للحجة على الطباع الشيطانية، واستزادةً لنعم رب العالمين، إذ بالشكر تدوم النعم وتزيد الآلاء وتثبت عطايا أرحم الراحمين.

فالحاصل أنني قد عرضت هذه الأمور دعوةً للطلاب، ورحماً على الأتقياء الضعفاء. فمن كان في شك من أمري، وكان مُكفراً زُمري، فعليه أن يسعى إليّ بقدم الرضاء، ويختار طريقاً من هذه الطرق للاهتداء، لا للمرء وطلب العلاء، ولا يرضى بغشاوة الجهل والخطاء، ويأتيني كالمتواضعين. فأرجو أن يرحمه الله ويجعله من المطمئنين. بيد أنني ما أمرتُ أن أدعو الذين ينحتون الآيات من عند أنفسهم ومن أماني الجنان، ثم يقولون أرنا هذه لو كنت من الرحمن، وإن لم تأت بها فلسنا بمؤمنين. أولئك الذين يحبون آراءهم، ويريدون أن يأمروا الله ليتبع أهواءهم، فيتركون في الضلالة خالدين. وإن الله

لن يرفع حجبه ولن يزيكهم، إنهم كانوا مستكبرين. إلا الذين تابوا وأصلحوا فأولئك من المرحومين. وما كان الله محكوماً أحد في البلاد، وهو القاهر فوق عباده لا كالغلمان والعباد، سبحان ربي! هل كنتُ إلا بشراً من المأمورين.

ثم القوم احتجوا علي بأمور نذكرها برعاية الاختصار، لنستأصل كل ما أوردوا على سبيل الاعتذار، ولنكشف باب الحق على الطالبين. فمنها أنهم يقولون إن "آتم" ما مات في الميعاد، بل مات بعده وما ثبت إيمانه بالأشهاد، ولم يثبت أنه كان من الخائفين الراجعين.

فاعلم أن نبأ موته كان مشروطاً بعدم الرجوع إلى الحق والصواب، وما كان كحُكْمٍ قطعي كما فهم بعض الدواب. ثم كان من المشروط في حياته أن يثبت على الحق بعد القبول، وإن لم يثبت فكان حُكْمُ الموت لذلك الجهول، فتمت كلمة ربنا صدقا وحقا ولو أنكرها بعض الجاهلين.

وقد سمعت أنه مات بعد الإخفاء وعدم الإظهار، وإغضاب الرب بالإصرار على الإنكار، وكذلك كان إلهام رب العالمين. أفلا ترون موت هذا الجاهل الكفار، كيف فاجأه بعد الإصرار على الإنكار؟ وقد كتبت قبل موته ذلك كله في إلهام الله القهار، وصرح أنه سيؤخذ ويُمات بعد إخفاء الشهادة والغلو والاستكبار، ثم طبع وأرسل في البلاد والديار. وما مات "آتم" إلا بين سبعة أشهر من الاشتهار الأخير، وكان ذلك الاشتهار نبأ موته وكان النذير. أفلا

يتدبرون إلهاماتي، ولا يفكرون في كلماتي، ويمرّون ضاحكين على آياتي، رضوا بهذه الدنيا ونسوا يوم الدين، فكيف أداوي ختم قلوبهم وأقفال رب العالمين؟

فالحاصل أن "آتم" خشبي في الميعاد نبأ الرحمن، ورجع إلى الحق بخوف الجنان، لأنه ظن أن رحلته قربت ودنت، وخيامه طويت، وأوتادها قُلت، فخشبي على نفسه كالمأخوذين. فكان حقه أن يُمهّل إلى زمان الاجتراء، وتُترك* إلى ساعة المراء والإباء، فمهّل الله إلى وقت رجّع إلى كفره وطغى، ثم أماته تعذيباً في الدنيا والأخرى، وكذلك مضت سنته في الأولين.

وأما خوف "آتم" من الله القهار، فلا يخفى عليك عند التعمق في الأخبار. ألا ترى أنه بعد ما سمع مني نبأ العذاب كيف ألقى نفسه في أنواع الاضطراب، وانقطع من الأحزاب والأتراب، واختار كمجنونين شدائد الاغتراب، وأنأته الدهشة عن الأهل والأحباب، حتى طارت حواسه من الهيبة، وأصابت عقله صابة من كمال الخشية، وطفق يجشأ من بلد إلى بلد كالجنون، ويجوب كل طريق كالذي يطوّحه طوائح المنون. ورآه أناس كثير في زمن السياحة، وهو يبكي أو له رثة النياحة، وشهدوا أنه كان بادي الغمة كثير الكربة، كالذي يموت من العلة، أو كالمجرمين المأخوذين. فلا شك أنه خشبي وتنزّل إلى الخوف من طغيانه، ولا ريب أن

* سهو، والصحيح: "وتُترك". (الناشر)

زواجراً نَبَّئنا نَجَعْتُ في جَنانِهِ، وَقَرَعَتْ كَلِماتِي صِماخَ آذانِهِ، فَخافَ بِها قَهَرَ حَضرةَ الكُبرياءِ، وانتهجَ على قَدَرٍ مَهجَّةَ الاِهداءِ، على طَريقِ الإخفاءِ. ثم قسا قلبه بعد الأمن من الفناء، وإن الله لا يعذب خائفين في هذه الدنيا حتى يغيروا سير الخائفين. وإنه أقرّ بخوفه عند أحبابه، وأحبرهم عما جرى عليه في أيام اضطرابه، وكل أمر أخفاه من جمعه، أبداه سيل دمعته، وكل ما ستر من المين، أبدته دموع العين. ومَن دَلَفَ إليه كالمفتشين، وجده كالمجانين، وخابطا كالمصابين، ورأى أنه يمضي الأيام كيوم حامي الوديقة، ويصيح كضالٍّ من الطريقة، ويُزجى الأوقات بهموم وأفكار، كأن التلف استشفه بآثار. ومَن انتهى من أحبابه إلى فنائه، وتصدَّى لاستنشاء أنبائه، وجده كمختلِّ الحواسِّ، بادي الإيجاس، وما رآه في فرح، بل في غمٍّ وترح. ثم إذا انسلخت أشهر الميعاد، وظن أنه نجا، أخفى سرِّ خوفه وما أبدى، ولكنه ما استطاع أن يخفي قرائن إيجاسه، فنحت تأويلات بتعليم خناسه، وقال لا شك أني أنفدت أيام الميعاد بالخوف والارتعاد، ولكني ما خفت نبأ الإلهام، بل خفت أعداء صالوا عليّ كالضرغام، فإنهم أغروا عليّ في مقامي الأول حيةً معلّمةً من أنواع الحيل ورأيتها كالصائلين. ففررتُ على خوف منها إلى البلدة الثانية، لعلِّي أعصم من هذه الزبانية، ولكن ما تُرِكتُ فيه كالمؤمنين، بل صال عليّ بعض رجال مسلّحين. ثم فررت إلى الحتن الثاني، فصال العدا كما صالوا قبل إتياني. وإنهم كانوا ملائكة سفّاكين، فرأيتهم في كل مقام تبوّأته، وفي كل بلد وطّأته، ورأيتهم مخوفين، وكانوا

يتبوعون الرماح نحوي كالقائلين. فلأجل ذلك فررت من بلدة إلى بلدة لما خوفوني بقناة وصعدة، ورمح ومشرقية وفحيح تين، وأرادوا أن يسؤوني فاجئين. ولما جشأ جنائي كالمخوق، وهاجت الهموم كالسهوق، رأيت أن ألقى بأخر المقام جرائي، وأتخذ أهل خنني حيراني، وألقي عصا التسيار كالقاطنين.

هذه ظنون أظهرها بعد انقضاء الميعاد، وما تفوه بلفظة من مثلها في الميعاد عند الأشهاد، وما أشاع ظنونه في الجرائد، وما أطلع عليه أحدا من العوام والعمائد، بل ما رافع إلى الحكام، وما أخبر حاكما عن هذه الآلام، وأمضى الوقت كالصائمين. ثم أقرّ معها برؤية ملائكة العذاب، والخوف والاضطراب، وأقرّ أنه أنفد الأيام خافاً، وخشي موتاً زعافاً، وظن أنه من الدارسين. فانظروا إلى حيّة يذكرها.. أتقبلها فراسة أو تنكرها؟ فافهموا السرّ إن كنتم متدبرين.

ثم تعلمون أنه هرب من مكان إلى مكان، ومن حيران إلى حيران، ولفظته بلدة إلى بلدان، ولكن مع ذلك ما أظهر في الميعاد عذرا نحت بعده كشيطان، وما بكى عند حكّام ولا أعوان، ولا رجال ولا نسوان ولا بنين. أيقبل عقل في مثل هذه الخصومات وزوبعة التعصبات والنقمت، أن يصبر الرجل الذي هو عدو ديننا وحاسد عرضنا عند هذه السطوات، ولا يأخذنا ولا يرفع إلى القضاة؟ بل كان عليه أن يُفشي جريمتنا، ويثبت صرمتنا، وأذقنا جزاء السيئات. أما رأيت أن "آتم" وقومه كيف فرحوا بعد الميعاد باطلا، ورقص كل أحد خاتلا، ورمى من قوس الحبث عاتلا،

فكيف أعرضوا عن مثل ذلك الفتح المبين؟ أهذا أمر يقبله عقل الثقات، أو يطمئن به قلب العاقلين والعاقلات؟ أهذا هو المرجو من هؤلاء الدجالين أعداء الدين وأعداء خير الكائنات؟ ففكروا إن كنتم مؤمنين.

ألا ترون أن رسائلهم وجرائدهم مملوءة من إهانة دين الإسلام، وخير الأنام، فكيف غضبوا أبصارهم في مثل هذا المقام؟ ووالله إنهم عدو لي وعدو لسيدي المصطفى، وحراس عليّ لو يقدرون على نوع من الأذى ولو كسرنا بيضة من بيضهم، لحثوا الحكام علينا بتحريضهم، فكيف صبروا على ما رأوا منا سطوات للإهلاك، وحركات كالسفاك؟ أدرعوا بالحسنة، وما أرادوا جزاء السيئة بالسيئة؟ رأوا صولة أولى منا فعفوا وصبروا، ثم رأوا صولة ثانية فعفوا وصبروا، ثم رأوا الثالثة فعفوا وصبروا، وكذلك عملوا إلى سطوات ثلاث! فأقسموا أهذه أخلاق تلك الشياطين؟

أنفتي فراستكم أن هؤلاء الأشرار الكفار، والأعداء الفجار، الذين سبقوا كل قوم في عداوة الملة الإسلامية، والشريعة الربانية، وجدونا مجرمين سفاكين، ثم آلونا خبلاً عافين؟ بل هو مكرٌ وحيلة لإخفاء الخوف الذي ظهر من "آتم" بأنواع الارتعاد، في أيام الميعاد، ولذلك ما تألّى وما رفع الأمر إلى حكام هذه البلاد، وولّى ومكر وقال نحن قوم نجتنب الألياء، وقد حلف من قبل في القضايا. والحلف واجب عندهم لرفع الخصومة، ومن أبي فهو عندهم من

الفَجْرَةَ، وقد حَلَفَ يسوعُهُم والآخرون من الحواريين وأئمة النصرانية. وقال "كلارك" أن القَسَمَ عندنا كالحَنْزِيرِ عند المسلمين! وقد أَكَلَ حَنْزِيرًا الحَلْفَ كُلَّ أَحَدٍ من القسيسين، وبولص الذي كان رئيسَ المفتريين. فانظروا إلى "آتم" وكذبه الصريح، وعمله القبيح، كيف أَعْرَضَ عن الإقسام، خوفاً من قهر الله العلام؟ وكنت أعطيه مالا كثيرا على إيلائه، وقلتُ خُذْ مِنِّي قَبْلَ حَلْفِكَ لو كنت تشكُّ في قضائه. بل زدتُ وعد الصلة من ألف إلى آلاف، ولو استزاد لزدناه من غير إخلاف. فكان فرضه أن يجيئني جاراً ذليلاً الطرب، ويحلف ويُشيع صدقه في العجم والعرب، ولكنه فرّ كالمبهوت، وخرّ كالمكبوت، وأَعْقَبَهُ طائفُ الهول كالمجانين. فظهر من هذا ضَحْضَاحُهُ، وهتَكَ وجاحَهُ، وحصحصَ الحَقُّ وبدا كذب الخائنين.

ثم كان عليه عند الإعراض عن الحلف أن يأتي بدلائل على بهتانه، ويُثَبِّتَ بأشهادٍ مضمونَ هذيانه، ولكنه ما جاء بدليل على تلك الخرافات، وما صرَّخَ على بابِ حاكمٍ عند هذه الآفات، كما هو سيرة المظلومين. فأني دليل أكبر من هذا على مفترياته، وعلى كذبه وخزعبيلاته عند الناظرين؟ وإنه أقرّ غير مرة أنه خشي على نفسه في تلك الأيام، ووجد ما يجد الموقن بقرب الحمام.

وبعد ما خرج من سجن الأحران، ومارستان الذوبان، أهرَعَ الناسَ لِلْقَاهِ، وعجبوا بِمُحْيَاهِ، فمن حدق إلى أساريه، وفكر في شخيره، علم أنه بدّل الهيئة السابقة، وأطفأ النار المضطربة، وظهر

كالمساكين. وبكى مرارا في كل ناد رحيب، بتدل عجب، فسمع من كان في بُهرة الحلقة وحواليها، وفهم أنه خشي قنا الموت وعواليها، وأمضى الأيام كالمضطرين. وأما قومه فنسوا ما كان في إلهامي من قيد الاضطرار، الذي كان فيه كالمناط، وما فكروا في خوفه الذي بلغ إلى الإفراط، وتعاموا من الغيظ والاحتلاط، وأروا كل خبثهم كالشياطين، وأبدوا نواجذ طيش وغضب، وغيظ ولهب، وكانوا معتدين.

وأخنت عليّ السفهاء ورفقاؤه الجهلاء، وقالوا إنا من الغالين. وفهمناهم فما أقلعوا عن الجهلات، وانصلتوا كل الانصلات، وأضرموا نار الوغى، والتهبوا كجمر العضى، وما أنقروا وما فكروا، بل اضطرموا وتنكروا، وأبرزوا عريضة واعتداء، وافتروا أشياء، وتمايلوا على سب واستجراح، وشتيم ومزاح، واعتدوا هديانا وبهتاننا، وطاروا إلينا زرافات ووحدانا كالمجانين. وأخفوا الحقيقة كالحول المحتال، أو المغطّي الدجال، وكانوا يستهزئون سائرين في الأسواق، كما هي عادة الفساق، وكانوا يزيّنون الكذب والافتراء، وكل أحد قال فينا أشياء كما شاء، وقد استتلوا الصبيان والسفهاء مستهزئين. وكانوا يخدعون الناس نبأ ما فهموه، أو فهموه ثم حرفوه، وعثوا في الأمصار مفسدين. وسعى معهم علماؤنا كساع، بل كسباع، لابسي جلد النمر، وهاجمي هجوم السيل المنهمر، واتبعوا النصراري وزخارف زورهم، ونبذوا لباس التقوى وراء ظهورهم، مجترئين. وأرادوا جوحنا بحصائد اللسان وغوائل الافتنان، وأيدوا النصراري

كالشاهدين. وكان كلُّ كحسين بطالوي أو شيخ نجدي بعيداً من الديانة والدين.

والعجب أن "آتم" كان مُرماً لا يترَمُرمُ، وصامتا لا يتكلمُ، بل كتب إلي أني برئ منهم ومن فعلهم، وأعلم أنهم من الجاهلين المعتدين، ثم بعد مليّ قساً قلبه وصار من الغاوين. ومع ذلك ما أشرك نفسه في سبهم وبهتانهم، وسفاهتهم وهذيانهم، وتحمى عنهم وقعد كالمعتزلين المختفين. ولو كان يحسبني كذاباً، ويحسب نفسه مظلوماً مصاباً، لكان حقّه أن يكون أوّل المكذّبين وأوّل اللاعنين، بل كان الواجب عليه أن يشيع كذبي بالاشتهارات، ثم لا يقنع بما ويرفع إلى الحكام للمكافاة، لكنّه ما فعل ذلك بل صمت كالمخوفين. وأنت تعلم أنه إن كان مُطّلعاً على كذبي، وكان ظهر عليه خبثٌ قلبي، مع أنه تأذّى كلّ الأذى بسببي، فكان من مقتضى الفطرة الإنسانيّة، والضرورة الدينيّة والعقليّة، أن تتحرك* غضبه كالطوفان، ويشتعل لمجازاة العدوان. فما منعه أنه صار كالميت المدفون، واختفى كالمتمدّم المحزون؟ أليس هذا مقام يحار فيه الفهم، وتحيج الظنون ويفرط الوهم؟ ثم دعوته للحلف لكشف الحق على العوام، ووعدته قنطاراً على الإقسام، لا يسيرا من الحطام، ليرجع برُذن ملآن وقلب جَذلان، فولّى وما تألّى. ثم لعنته لعناً كبيراً، فقلت لعنة الله عليك إن أعرضت مزيراً، وما جئتني وما تركت

* سهو، والصحيح: "يتحرك". (الناشر)

تزويراً، فما جاء وما حلف، وتذكر رُزءاً سلف، وظن أنه الآن من المأخوذين.

وكفك ما ظهر منه عند سماع نبأ الموت، وتراءت له آثار الفوت، وأخذه خافٌ حتى ظهر التغير في الصوت، وطفق يفرّ كصيد مذعور يجوب البداء، ولا يرى شجراً ولا مرداء، وترك سبل العاقلين. ثم إذا رأى أن الخوف لا يخفى، وأن ليس الناظرون كالأعمى، فاشتهر أن الصائلين في كل مكان قفوه، وما وجدوا قصراً إلا علوه، حتى بُهتَ من نمط تعاقبهم، وما رأى راجلهم ولا راكبهم. فما أمهله هذا الخوف، بل احترق منه الجوف، وراه الزائرون أنه يمضي وقته بالبكاء والزفرات، ويجري من مُقلته سيلُ العبرات، ولا كدمع المقلات، وكان يستيقن أنه المغلوب، وسيعلق به الشعوبُ. فكما أن القنص عند حسّ جوارح باطشة يختفي في سرحة كثيفة الأغصان وريقة الأفنان، ويواري عينه تحت كل عيصة، بإرعاد فريصة، كذلك تاه كالمجانين.

ثم نحت من بعد الميعاد، على طريق الإفناد، أن جمعنا حلوا بساحته، وعجروا عليه شاهري سيوفهم لإبادته، ليغتالوه كالمفاجئين. فمن مثل هذه الافتراءات ونحت البهتانات، ظهر عُجره وبُجره، وعُرفَ نجمه وشجره، وظهر أنه هاب الإسلام، ولو أخفى المرام. ألا تعلم أنه كيف أقرّ بأنه خاف حيّة، ومن المعلوم أن الحيّة ما كان مأمورة منا ولا معلّمة، وتلدغ الحيّة بأمر الله لا بأمر الإنسان، فثبت أنه خشي قهر الديان، وأوجس في نفسه خيفة نبأ الرحمن،

وهذا هو شرط الرجوع الذي كان في إلهام المّان، فانتفع من الشرط بخوف الجنان، ثم ستر الأمر كما لكركر.

وإن قصة الحية تشهد بكمال الصفاء، أن الخوف كله كان من قدر السماء، لا من هؤلاء وهؤلاء. وقد سمعتَ أبن دعوته للإلاء، فكان هو الخوف الذي رجعه إلى الإباء. وقلت إبن مجيزك كالغرماء، ولو شئت اجمع عني قبله عند أحد من الأبناء، فخاف عكازتي، مع أنه اطلع على إجازتي، وإذا ولّى وما تألّى. فقلت: يا هذا قد آوا من قبل خواص أممتك، وأكابر ملتك، أنت أفضل منهم أو تحسبهم من الفاسقين؟ فما رد قولي وما آلى كالصادقين.

فكذبهُ شيء لا يحتفي بإخفاء، ولا يستقيم بافتراء، بل هو أجلي البديهيات، وأسنى المسلمّات، ولكن المخالفين قوم أعماهم إعصار التعصب والشحناء، كما يُعشي الهجير عينَ الحرباء. فلا شك أن الحق أبلج، والباطل لجلج، واسودّت وجوه المبطلين. ولا ريب أن موت هذا الكذاب، أمت كلّ مكذب في هذا الباب. وإبن أرى أن الألسنة قد زومت، والحجة قد تمّت، وظهر الحق ولو كانوا كارهين.

وقد ذكرنا قبل موت "آتم" في الاشتهارات السابقة، أنه يموت بعد الإنكار من الرجوع والإنابة، والإصرار على الكذب والفرية، فنوالي شكر الله المنان، أنه فعل كما كتب قبل هذا الزمان، وأتم كما كنت ألهج بشوق الجنان، ومات "آتم" بعد مرور نصف من الأشهر المسيحية، وما نفعه فراره من البلدة إلى البلدة، وإن شئت فافهم

زمان وفاته من هذه الفقرة:

"هوى دجالٌ ببُّ في عذاب الهاوية المهلكة"

١٨٩٦ السنة العيسوية

وهذه آية من آيات حضرة العزة، فإنه ما تركه حياً إذا ترك سبل الديانة، بل أخفاه تحت التربة، إذا ما أخفى سر الحقيقة. فحصحص الحق وزهق الباطل وبطلت دقارير الكفرة، فأنى تُسحرون يا أهل البخل والعصبية؟ ألم يأن لكم أن تتوبوا يا متخلفي القافلة، فقوموا وأمهلوا بعض هذا التدلل والنخوة، ولا تبارزوا الله مجترئين.

أيها الأناس! إن "آتم" مات، وبازي الحق على الباطل خات، فارقوا على ظلعكم واذكروا الأموات، وتوبوا مسترجعين. وإن التقوى ليس في لمة مشيطة، ولحى طويلة، وكعاب مكشوفة، وعمائم ملفوفة، وشوارب مقطوعة، ورسوم مجموعة، إنما التقوى في اختيار الصواب بعد الخطأ، والرجوع إلى الحق بعد الإدراء، والالتياح بذكر أيام الإباء، والتناهي عن القوم المفسدين، وترك بخل النفس وكبرها لله رب العالمين. وإن الأتقياء يُسرّون بقبول الحق كسرورهم بقاء إلفٍ لقي بعد الفقدان، أو حصول مرام تأتي بعد الحرمان، وإذا ذكروا فيتذكرون متواضعين. فأحسنوا النظر في الأعمال، أتجدون تقواكم كمثل هذه الأمثال؟ ما لكم لا تتناهون عن الفساد، ولا تمولكم تماويل المعاد؟ أصاب بستانكم جائحة، فكيف ألهمتكم غفلةً يا معشر النائمين؟ إن في موت "آتم" لآيات لأولي الأبصار. أما قرأتم من قبل اشتهاري في هذه الأخبار؟ فالآن لا ينكرها إلا حزب الشياطين.

وقود النار "آتم" ذي الخبال
 وإنكار ومكر في المقال
 وفي النيران ألقى كالدمال
 سمين الجسم أبعد من هزال
 وأحابب وأملاك ومال
 فما نفعته حيل الأنتقال
 بأطراف الزجاج أو العوالي
 زمان الموت من زهو الضلال
 مُقدرة له بعد الخبال
 وإصرار على سبل الوبال
 ألم يرحل إلى دار النكال
 ألم يظهر جزاء الأفتعال
 ولم يعصمه أحد من عيال
 فأين الطاعنون من الدلال
 وأين الضاحكون من الحوالي
 ومن أهل المطابع كالرئال
 وقلبي دق من قيل وقال
 فأمررنا كإمرار الخبال
 ويعلم من يراني سرّ حالي
 فأصبحنا كمجروح القتال

تذكّر موت دجال رزال
 أتاه الموت بعد كمال دجل
 أراه الله هاويةً وذلاً
 كمثلني كان في عمر وسن
 وما أرداه إلا حبُّ كفر
 فرى أرضاً بخوف بعد أرض
 ودقت هامة الكذاب حقاً
 وقد هاب المنيا ثم أنسى
 ففكّر كيف أدركه المنية
 توفاه المهيمن عند حُبث
 فأين اليوم "آتم" يا عدوي
 ألم يثبت بفضل الله صدقي
 وما نجاه عيسى والصليب
 تجلّت آية الربّ العظيم
 وأين اللاعنون بصدر ناد
 وأين الساخرون من الأدابي
 فؤادي قد تأذى من أذاهم
 أطالوا ألسن التذميم ظلماً
 وقالوا كاذب يؤذي الأناسا
 وملأوا كل قرطاس بدمي

إِذَا مَا جَاوَزُوا سُبُلَ اعْتِدَالِ
 أَرُونِي فِي الْجُمُوعِ أَوْ الْعِيَالِ
 أَمَا دُفِنَ الْمَكْذِبُ فِي الدَّحَالِ
 فَقُومُوا وَاشْهَدُوا لِلَّهِ لَا لِي
 وَلَكِنْ جَدَّهُ حَبُّ قَلَا لِي
 فَمَا بَقِيَ الظَّالِمَ وَلَا اللَّيَالِي
 وَإِنَّ اللَّهَ يُخْزِي كُلَّ غَالِي
 وَمَا آوَاهُ أَحَدٌ مِنْ مَوَالِي
 عَلَى أَمْثَالِهِ مِنْ ذِي الْجَلَالِ
 فَأَشْرَقْنَا كِأَشْرَاقِ اللَّيَالِي
 وَخَفَ سُوءَ الْعَوَاقِبِ وَالْمَالِ
 فَنَرُجُو أَنْ تَقُولُوا لِي نِزَالِ
 وَشَأْنٌ قَدْ تَبَاعَدَ مِنْ خِيَالِ
 وَأُرْوَانِي بِكَاسَاتِ الْوَصَالِ
 وَأَنْأَى تُرْبَتِي فَبَدَا زُلَالِي
 وَإِقْبَالِي أَتَى بَعْدَ الزَّوَالِ
 فَوَافَانِي حَبِيبِي رَوْحُ بَالِي
 وَلَا يَدْرِي خَصِيمٌ سَرَّ حَالِي
 وَجَلَّتْ شَمْسُ بَعْثِي فِي الْكَمَالِ
 وَقُمْتُ وَبِتُوبَةٍ نَحْوِي تَعَالِ

وَمَا خَافُوا عِقَابَ اللَّهِ رَبِّي
 فَسَلِّمُهُمْ أَيْنَ "آتَم" فِي النَّصَارِي
 أَمَا مَاتَ الَّذِي زَعَمُوهُ حَيًّا
 أَمَا شَاهَتْ وَجْهُهُ الْمُنْكَرِينَا
 وَلَمْ يَقْتُلْهُ مِنْ أَمْرِي تُبُونٌ
 بَدَتْ آيَاتُ رَبِّي مِثْلَ شَمْسِ
 سَهَامِ الْمَوْتِ مَا طَاشَتْ بِمَكْرٍ
 تَوَفَّى كَاذِبًا رَبُّ غَيُورٍ
 تُوفِّيَ وَالسِّيُوفُ مُسَلَّلَاتٌ
 تَجَلَّى صَدُقْنَا وَالصَّدَقُ يَجْلُو
 فَلَا تَعْجَلْ عَلَيْنَا يَا ابْنَ ضَعْفٍ
 نَزَلْنَا مِنْزَلَ الْأَضْيَافِ مِنْكُمْ
 وَبِي فِي حَضْرَةِ الْمَوْلَى مَقَامٌ
 وَصَافَانِي وَوَافَانِي حَبِيبِي
 أَرَانِي الْحُبُّ مَوْتِي بَعْدَ مَوْتِي
 وَجَدْنَا مَا وَجَدْنَا بَعْدَ وَجَدٍ
 إِذَا أَنْكَرْتُ مِنْ نَفْسِي بِصَدَقٍ
 أَطَعْتُ النُّورَ حَتَّى صَرْتُ نُورًا
 طَلَعْتُ الْيَوْمَ مِنْ رَبِّ رَحِيمٍ
 فَلَا تَقْنُطْ مِنَ اللَّهِ الرَّءُوفِ

قَرِينَا مِنْ كَمَالِ النَّصِيحِ فَاقْبَلْ قَرَانَا بِالْتَهْلُّلِ كَالرِّجَالِ
 وَخَيْرُ الزَّادِ تَقْوَى الْقَلْبِ لِلَّهِ فَخُذْ إِيَّاهُ قَبْلَ الْإِرْتِحَالِ
 وَفَكَّرْ فِي كَلَامِي ثُمَّ فَكَّرْ وَلَا تَسْلُكْ كَمَرْءٍ لَا يَبَالِي

ثم العلماء أوسعوني سبباً، وأوجعوني عتباً في ختن "أحمد"، وقالوا إنه ما مات في الميعاد كما وعد في الإلهام وأكد، بل نجده ببخت أسعداً، وعيش أرغداً، وما نرى أثراً فيه من ضعف الميرة، ولا عُسرًا في امتراء الميرة، وإنه حيٌّ سالمٌ إلى هذا الحين.

أما الجواب فاعلم أن هذا الإلهام كان مشتملاً على الشُعبتين، شعبة في موت "أحمد" وشعبة في ختنه الذي جعله كقرّة العين. فأتم الله شعبة أولى في الميعاد، ومات "أحمد" كما أُخبر في إلهام رب العباد، وتلظى أقراره من همّ موته، وقد لاحت لك تفاصيل فوته، فلا بد لك أن تقرّ بصدق هذه الشعبة باليقين.

وأما الشعبة الثانية التي تتعلق بختنه وفوته، فلا يختلج في صدرك تأخير موته، فإنه أمرٌ لا تفهمه إلا بعد الإحاطة على الوقعات، فإذا فهمتَ فيظهر عليك خطؤك كالبديهيات، وتقرّ بأن الشيطان أنساك طريق الحق والحقيقة، وبعّدك عن الصراط والطريقة، وأراد أن تلحقك* بالغاوين.

فالآن نقص عليك القصة، لتطلع على الحقيقة وتجد منها الحصّة، ولتكون من المستبصرين. فاعلم أن زوجة "أحمد" وأقاربها كانوا من

* سهو، والصحيح: "يلحقك". (الناشر)

عشيرتي، وكانوا لا يتخذون في سبل الدين وتيرتي، بل كانوا يجترئون على السيئات وأنواع البدعات، وكانوا فيها مفرطين. فألهمت من الرحمن أنه معدّبهم لو لم يكونوا تائبين. وقال لي ربي إنهم إن لم يتوبوا ولم يرجعوا فنُنزل عليهم رجسًا من السماوات، ونجعل دارهم مملوءة من الأرامل والثيبات، ونتوفاهم أباترَ مخذولين. وإن تابوا وأصلحوا فنتوب عليهم بالرحمة، ونغيّر ما أردنا من العقوبة، فيظفرون بما يبتغون فرحين. فنصحت لهم إتماما للحجة، وقلت استغفروا ربكم ذي* المغفرة. فما سمعوا كلماتي، وزادوا في معاداتي. فبدأ لي أن أشيع الاشتهار في هذا الباب، لعلهم يتقون ويرجعون إلى طرق الصواب، ولعلهم يكونون من المستغفرين.

فأشعتُ الاشتهارَ، وأنا في "هُشياراً"، فنبذوه وراء ظهورهم غير مبالين. وكان ذلك أول الاشتهارات في هذه المقدمة، والبواقي التي أُشيعتُ بعدها فهي لها كالأنباء المفصلة المصرّحة، وكالتفصيل للعبارات المُجملة السابقة. وأنت تعلم أن وعيد ذلك الاشتهار كان مشروطاً بشرط التوبة، لا كالعقوبة القطعية الواجبة النازلة من غير المُهلة. وإن شئت فافقرأ اشتهاراً مني طُبع في "غوضف" ♦ من

* سهو، والصحيح: "ذا". (الناشر)

♦ "غوضف" بحساب الجمل تساوي ١٨٨٦. وقد استخدم حضرته أسلوب تضمين الأرقام في كلمات؛ وهو أسلوب عربي قديم معروف كان يستخدمه الأدباء والشعراء لحفظ التواريخ بطريقة سهلة. فمثلاً عندما مات السلطان المملوكي "برقوق" صاغ أحد الأدباء في عصره شبه الجملة: "في المشمش" والتي مجموعها ٨٠١ وهي عام وفاته

السنوات المسيحية، لِعَضْفِ كِبَرِ هذه الفئة الباغية. فلما لم ينتهوا بهذا الاشتهار، ولم يتركوا طريق التبار، فكشف الله علي أموراً لتلك الفئة، وأنا بين النوم واليقظة، وكان هذا الكشف تفصيل ذلك الإلهام في المرة الثانية.

وبيانه أني كنت أريد أن أرقُد، فإذا تمثّلت لي أمُّ زوجة "أحمد"، ورأيتها في شأنٍ أحزّني وأرجد، وهو أني وجدتها في فزع شديد عند التلاقي، وعبراتها يتحدرن من المآقي، فقلت: أيتها المرأة توبي توبي فإن البلاء على عَقْبِكَ.. أي على بنتك وبنت بنتك. ثم تنزّلتُ من هذا المقام، وفهمتُ من ربي أنه تفصيل الإلهام السابق من الله العلام، وألقي في قلبي في معنى العقب من الديان أن المراد ههنا بنتها وبنت بنتها لا أحدٌ من الصبيان، ونُفِثَ في روعي أن البلاء بلاءٍ، بلاء على بنتها وبلاء على بنت بنت من الرحمن، وأهما متشابهان من الله أحكم الحاكمين^٥. وإذا رجعتُ لتفتيش لفظ العقب إلى

بالحجرية. وقد اختارها لما لها من تشابه باسمه "برقوق". كذلك عندما توفى الشاعر "الدلنجاوي" رثاه صديق له في أبيات جاء فيها:

فقلتُ لمن يقول الشعر أقصرُ فقد أَرَحْتُ: مات الشعر بعده

وجملة "مات الشعر بعده" قيمتها العددية ١١٢٣ وهو العام الهجري الذي توفي فيه. (الناشر)

• الحاشية: قد سمع مني هذا الكشف بمقام "هوشياربور" قبل موت "أحمد"، بل قبل إشاعة واقعات كلّها، رجلٌ من وُلد شيخ صالح غزنوي، وكما تعلم كان هذا الرجل ابن تقي، ونسبت اليوم اسمه، وأعرف وجهه، لعل اسمه عبد الرحيم أو عبد الواحد على اختلاف انتقال الخيال، وأظن أنه لا ينكره عند السؤال، والله يعلم ما في البال، وهو أعلم ما في صدور العالمين. ومعه أشهاد آخرون كانوا هناك حاضرين، وأظن أن أحداً

اللغات العربية، فإذا فراستي صحيحة مطابقة بالمعاني الرويَّة، فشكرتُ الله مؤيِّد الملهمين.

فالحاصل أن الله صرَّح في هذا الكشف ما أراد من نوع التخويف والإنذار، وأشار إلى أن الآفة على زوج "أحمد" وبناتها من الله القهار. ومع ذلك حثَّ على التوبة والاستغفار، وأوماً به أن العذاب يؤخَّر بالتضرع والرجوع إلى الغفار، ولا يحل الغضب إلا عند الإباء، والاجترأ والاعتداء، ومن تاب واستغفر فله حظ من رحمة حضرة الكبرياء، ولا يأخذه عذاب مهين، إلا بعد العود إلى سير الفاسقين. فأشعتُ هذا الكشف بالاشتهار، كما أشعتُ إلهامي قبله هداية الأحرار. ثم إذا مضى عليه مليٌّ من الزمان، أُلهمتُ فيهم مرة ثالثة من الله الديان، وتجلَّى هذا الإلهام كالنور في الظهور، ورفع الحجب كلها من السرِّ المستور، وكان هذا شرحاً مبسوطاً للإلهامات السابقة، وتفصيلاً للكلمِ الجُمَّلة الكشفية، وبيانا واضحا للسامعين.

وبيانه أن الله خاطبني في عشيرتي المعتدين، وقال: "كذبوا بآياتي وكانوا بها مستهزئين، فسيكفيكهم الله ويردّها إليك، لا تبديلَ لكلمات الله، إن ربِّك فعَّالٌ لما يريد. فأشار في لفظ "فسيكفيكهم الله" إلى أنه يرُدُّ بنتَ "أحمد" إليَّ بعد إهلاك المانعين. وكان أصل

منهم كان بابو إلهي بخش أكونتنت الملتاني، ومحمد يعقوب أخ الحافظ محمد يوسف، ومعه محمد يوسف وكثير من المسلمين. وعفا الله عني إن كنت أخطأت في ذكر أحد منهم، فإنني لست أحصيهم باليقين، وقد مضى على هذا إحدى عشرة من سنين. منه

المقصود الإهلاك، وتعلم أنه هو الملاك، وأما تزويجها إياي بعد إهلاك الهالكين والهلاكات، فهو لإعظام الآية في عين المخلوقات بإدراج المشكلات العضلات، أو لحكمٍ أخرى من عالم المغيبات، أو لرحمٍ على المصابين والمصابات، فإنه يضع المرهم بعد الجرح، ويعطي الفرح بعد الترح، ولا يريد أن يجيح عباده المستضعفين. ومن أزيد منه جوداً ورحماً؟ وهو أرحم الراحمين.

وإني أجد إشارة في الاشتهار الأول في هذا الباب، من الله الراحم الوهاب، فإنه قفى بذكر رحمته بعد ذكر عقوبات نازلة على هذه الفئة، وبعد ذكر أراملهم ومصائبهم المتفرقة، فخطبني بنهج كأنه يشير إلى الرحم عليهم في الأيام الآتية، فقال: "يباركك الله بركات مستكثرة، ويُعمّر بك بيتٌ محزّبٌ، ويُملأ بك من بركات دارٍ مخوفةً". فهذه إشارة إلى زمان يأتي عليهم بعد زمان الآفات، عند وُصلةٍ مقدّرة موعودة في الاشتهارات، وتتم يومئذ كلمة ربنا، وتسودّ وجوه عدانا، ويظهر أمر الله ولو كانوا كارهين. وإن الله غالب على أمره وإن الله يخزي قوما فاسقين. فأهلك كما وعد في "فسيكفيكمهم" أربعةً منهم بعد تزويجها، وعات فيهم ذئبُ الآفات عقبَ تزليجها، كما لا يخفى على المطلعين. فإنه أهلك أباهما وعمّتيها وجدّتها، وكان كل أحد من الغالين المعتدين. والآن ما بقي إلا واحد من الهالكين. فانظروا إلى حكم الله كيف أتى الأرض من أطرافها، وانتظروا ساعة يوفي فيها شظافها. إنه لا يبطل قوله، وإنه لا يخزي قوماً ملهّمين.

واعلم أن حرف الفاء على لفظ "فسيكفيكم الله" من الرحمن بعد ذكر تكذيب أهل الطغيان، كان إشارة إلى أن العذاب لا ينزل إلا عند التكذيب والعدوان. فلما كذبوا بعد التزويج وقاموا بالاستهزاء وآذوني بأنواع الإيذاء، فأمات الله أباهما "أحمد" وبدل ضحكهم بالبكاء، وغشيتهم من الغم ما غشي قوم يونس عند إيناس آثار العذاب، وألقاهم موتُ المائت وخوفُ نفس الختن في أنواع الاضطراب. ولما بلغ نساءهم نعي موت "أحمد"، وكنن من قبل كرجل أكفر وأكند، عططن جيوبهن، وأسلن غروبهن، وصككن حدودهن، وتذكرن عنودهن، وهاجت البلابل، وانقض عليهن من المصائب الوابل، واهترت الأرض تحت أقدامهن، ثم تمثل موت الختن في أوهامهن، وطفقن يقلن والدموع تجري من العيون: هذا ما وعد الرحمن وصدق المرسلون.

فالحاصل أن هؤلاء أوجسوا في أنفسهم خيفة، وظنوا أن ختنهم سيموت كما مات صهره عقوبةً، فإنهما كانا غرضين مقصودين في إلهام واحد، وكان موت أحدهما للآخر كشاهد، ومن المقتضى* الفطرة الإنسانية أنها تقيس بالأحوال الموجودة للأشياء على أحوال أشياء أخرى تضاهيها بنحو من الأنحاء، فتفهم أن واقعات آتية ليست إلا كمثّل نظائرها المشهودة، وتستنبط الأحكام المنتظرة من الأحكام الواردة، وكذلك جرت عادة المتوسمين. فلما انكشف على

* سهو، والصحيح: "مقتضى". (الناشر)

عشيرتي بموت "أحمد" النظير وبدا المثل الكبير، فخافوا خوفا كثيرا مع إكثار البكاء، ونسوا طريق التمسخر والاستهزاء، وزُمتْ ألسنهم وصاروا كالمبهوتين. وتصلّوا من هفوتهم، وتندموا على فوهتهم، وخضعت أعناقهم كالمصابين.

وقد علمت أن هذا الإلهام كان لإنذار هذه العشيرة، وكان الوعيد وشرطه لتلك الفئة، وما كان لختنهم دخل في هذه القصة. ثم ليس من المعقول أن يُظن أن قلب ختنهم بقي على الجراة السابقة، مع معاينة موت صهره الذي كان شريكه في نبأ الهلاكة، بل شهد الشاهدون أنه خاف خوفا شديدا بعد هذه الواقعة، وكاد أن ترهق نفسه بعد سماع هذه المصيبة، وخشي على نفسه، وحسب النكاح آفة من الآفات السماوية، وإن كنت في شك فاسأل العارفين الناظرين.

فالحاصل أنهم لما تخوّفوا بعد موت "أحمد"، وخوّف هلاكه كل أحد وأرجد، فكان حقهم أن ينتفعوا بشرط الإلهام، فإن العذاب كان مشروطا لا حُكما قطعيا كما هو وهم العوام. فاسأل أهل "أحمد" ما جرى على زوجه الأرملة بعد موته في الميعاد، وكيف صبت عليها مصائب وهجم الهموم على الفؤاد، وما بقي لها ثمال ولا نوي ولا متكفل الأولاد، وقعدت كالمساكين بعد كونها كالقياد، وكيف سمعت نعيه بعين عبّري، وقلب على جمر الغضا، وكيف جرى عليها ما جرى. ثم أكلها خوف موت الختن بعد هذا النّاد، وأنفدت أيام الميعاد بالارتعاد. وكذلك فرعت أمها وأخواتها

وَدُبْنَ فِي فِكْرِ مَوْتِ الْخْتَنِ، وَشَرِبْنَ كَأَسَاتِ الْحَزَنِ، وَجَعَلْنَ عَمْرَنَ*
 أَوْقَاتَهُنَّ بِالصَّلَاةِ وَالِدَعَوَاتِ، وَالصِّيَامِ وَالصَّدَقَاتِ. وَمَا رَقَّأَ لهنَّ مِنْ
 أَلَمِّ دَمْعَةٍ، وَتَمَثَّلَ لهنَّ لِخْتَنَهُنَّ فِي كُلِّ وَقْتٍ مَنِيَّةٌ، فَاسْأَلِ أَهْلَ هَذِهِ
 الْقَرْيَةِ إِنْ كُنْتَ مِنَ الْمَرْتَابِينَ.

فالحاصل أنهم لما تابوا تاب الله عليهم بالرحمة والمغفرة، كما هي
 سنة قديمة من السنن الإلهية، فإنه لا يلغي شرط وعيده ولا يترك
 طريق المعدلة، ولا يظلم كالمعتدين. وعليك أن تقرأ اشتهاراتي
 السابقة، وتجمع في نظرك المقامات المتفرقة، فإذا فعلت ذلك فتصل
 إلى نتيجة صحيحة، وتطلع على شروط صريحة، وتنجو من طريق
 الخطأ والخطئين. وقد علمت أنني أشعت في هذا الأمر اشتهارات
 ثلاث في الأوقات المتفرقة، وما كان إلهام في هذه المقدمة إلا كان
 معه شرط كما قرأت عليك في التذكرة السابقة. ألم تُنبأوا بما أشعت
 في السنوات الماضية، فأين تذهبون كالثاغية أو الراغية، ولا تفكرون
 كالعاقلين؟

ثم ما قلت لكم إن القضية على هذا القدر تمت، والنتيجة الآخرة
 هي التي ظهرت، وحقيقة النبأ عليها ختمت، بل الأمر قائم على
 حاله، ولا يرده أحد باحتياله، والقدر قدر مبرم من عند الرب
 العظيم، وسيأتي وقته بفضل الله الكريم. فوالذي بعث لنا محمدا
 المصطفى، وجعله خير الرسل وخير الورى، إن هذا حق فسوف

* سهو، والصحيح: "يعمرن". (الناشر)

ترى. وإني أجعل هذا النبأ معياراً لصدقي أو كذبي، وما قلت إلا بعد ما أُبَيِّنُ من ربي. وإن عشيرتي سيرجعون مرة أخرى إلى الفساد، ويتزايدون في الخبث والعدا، فينزل يومئذ الأمر المقدر من رب العباد. لا راداً لما قضى، ولا مانعاً لما أعطى. وإني أراهم قد مالوا إلى سيرهم الأولى، وقست قلوبهم كما هي عادة التوكي، ونسوا أيام الفزع وعادوا إلى التكذيب والطغوى، فسينزل أمر الله إذا رأى أنهم يتزايدون، وما كان الله أن يعذب قوما وهم يخافون.

فاعلموا أيها المكذبون الغالون، أن صدقنا سيُشْرِقُ كذُكَّاءٍ في الضياء، وزُوركم يفسو إلى ضواحي الزوراء، أتمنعون ما أراد الله ذو العزة والعلاء؟ أبلغ مكركم إلى ذرى السماء؟ فكيدوا كل كيد كان عندكم ولا تُمهّلون في الإيذاء، ثم انظروا إلى نصرة رب العالمين.

يا حسرة على علماء هذا الزمان! ما بقي فيهم نور فِرَاسَة وغازَ دَرِّ الإِمعان، سَمَعْنَاهُمْ فلا يسمعون، وقريناهم فلا يقبلون، ولا يقرأون كتيبي إلا كارهين، ويفرون منا مستنفرين.

ثم أنتم تعلمون يا أولي الألباب، أن قوم يونس عُصَمُوا من العذاب، مع أنه لم يكن شرط التوبة في نبأ الله رب الأرباب، ولأجل ذلك ذهب يونس مغاضباً من حضرة الكبرياء، وتاه في فلوات الابتلاء، ولذلك سماه الله يونس لأنه أُوْنِسَ بعد الإِبلاس، وفاز بعد

اليأس، وما أضعه أرحم الراحمين. فلا شك أن البلاء كله ورَد عليه لعدم الشرط في نبأ الرحمن، ولو كان شرط يعلمه لما فرَّ كالغضبان، ولما تاه كالمبهوتين. ولما ترك يونس بسوء فهمه الاستقامة والاستقلال، وتحرَّى الجلاء والانتقال، أدخله الله في بطن الحوت، ثم نبذه الحوت في عراء السُّبُرُوت، ورأى كلَّ ذلك بما أعلنَ ضجرَ قلبه بالحركة من المقام، وفارقَ مقرَّه من غير إذن الله العلام، وفعلَ فعل المستعجلين. وإدخاله في بطن الحوت كان إشارة إلى مُحَاوِة صَدَرَ منه كالمبهوت، وكذلك سماه الله ذا النون، بما ظهر منه حِدَّةٌ وُؤُونٌ، بالغضب المكنون، ولا يليق لأحد أن يغضب على رب العالمين.

فالحاصل أن قصة يونس في كلام الله القدير، دليل على أنه قد يؤخَّر عذاب الله من غير شرط يوجب حكم التأخير، كما أُخِّرَ في نبأ يونس بعد التشهير، فكيف في نبأ يوجد فيه شرط الرجوع؟ ففكَّر بالخضوع والخشوع، ولا تنسَ حظك من التقوى والدين. وإن قصة يونس موجودة في القرآن والكتب السابقة والأحاديث النبوية، وليس هناك ذكرُ شرط مع ذكر العقوبة، وإن لم تقبل فعليك أن تُرينا شرطاً في تلك القصة، فلا تكن كالأعمى مع وجود البصارة. واعلم أن الشرط لم يكن أصلاً في القصة المذكورة، ولأجل ذلك ابتلي يونس وصار من الملوّمين، ونزلت عليه الهموم، وأخذ الضجر المذموم، حتى استشرف به التلّف، ونسي كلَّ بلاء سلف، وظنَّ أنه من المُفْتَنِينَ. فما كان سبب افتنانه إلا أنه استيقن أن العذاب قطعيٌّ لا يُرَدُّ، وأنه سيقع في الميعاد كما يودُّ، فانقضى الميعاد وما استنشى

من العذاب ريحاً، وما استغشى لباساً مريحاً، فأضجره هذا الأذكار، واستهوته الأفكار، وكان رأى القوم غالين في المرء، ومُنبرين بالإباء، فحسب أنه من المغلوبين. فقال لن أرجع إليهم كذاباً ولن أسمع لعن الأشرار، وما رأى طريقاً يختاره، فألقى نفسه في البحر الزخار، فتداركه رحمُ ربّه والتقمه الحوت بحكم الله الجبار، ورأى ما رأى بقلب حزين. فمن المعلوم أنه لو كان شرط في نزول العذاب، لما اضطر يونس إلى هذا الاضطراب، وما فر كالمتمتمين. أما تقرأ كتب الأولين وقول خاتم النبيين؟ أتجد فيها أثراً من الشرط؟ فأخرج لنا إن كنت من الصادقين.

فالآن ما رأيك في أبناء قُيِّدَتْ بشرط الرجوع والتوبة؟ أليس بواجب أن يرعى الله شروطه بالفضل والرحمة؟ وقد قرأنا عليك تفاصيل هذه القصة، وفتحنا عليكم أبواب المعرفة واليقين. فما لكم لا ترون الحق بنور الفراسة؟ وتسقطون كالأذبة على النجاسة، وتعرضون عن الشهد والقند، وتسعون إلى عذرة الفرية والفند، ولا تبتغون لذاذة الطيبات، وتموتون للخبيثات، وطبتم نفساً بإلغاء الحق والدين، ونبذتم حكم ديانٍ غمرت مواهبه العالمين.

بوحش البرِّ يُرجى الائتلافُ وكيف الائتلاف بمن يعافُ
 قرينا المعرضين بطيبات فردوا ما قريناهم وعافوا
 جُمق يحسبون الدرّ ضرّاً وأجياف الفساد لهم جوافُ
 فما أردى العدا إلا إباء وظنُّ السوء فينا واعتسافُ

كلابُ الحَيِّ قد نبحوا علينا
 وقد صرنا حُديًّا الناسِ طُرًّا
 أرى ذُلًّا بسُبلِ الحقِّ عزًّا
 وإنَّ اللهَ لا يُخزِينِ أبداً
 فما للعالمين نَسُوا مقامي
 وقاموا كالسِّباعِ لهتكِ عرضي
 ولا يدرون ما حالي وقالي
 تراهم مفسدين مكذبينا
 فمن كفرانهم ظَهَرَ البَلايا
 وإنَّ المُلِكَ أَجْدَبَ مَعِ وباءَ
 إذا ما جاء أمرُ اللهِ مَقْتًا
 وهذا كَلِهَ مِنْ سِوَةِ عَمَلٍ
 فتوبوا أيها الغالون توبوا
 وخافَ اللهُ أَهْلَ العِلْمِ لَكِنْ
 لَهُ شَيْمٌ كَأَنَّ البَيْشَ فِيهَا
 لَهُ عِنْدَ اللُّبَانَةِ كُلِّ مَيْلٍ
 وَلَمَّا حَازَ مَطْلَبَهُ وَأَقْنَى
 عَلَى الإِسْلَامِ هَذَا الرَّجُلُ رُزُّهُ
 وَلَا يَدْرُونَ حَقْدًا مَا العَفَافُ
 وَبِرْهَانِي لِمُرَّانِي ثِقَافُ
 وَوَهْدِي فِي رِضَا المَوْلَى شِعَافُ
 أَنَا البَازِي المَوْقِرُ لَا العُدَافُ
 قَلُوبٌ فِي صَدُورٍ أَوْ وَحَافُ
 وَمَا بَقِيَ الوِفَاقِ وَلَا الوِلَافُ
 فَإِن مَقَامِنَا قَصْرٌ نِيفُ
 وَسِيرَتُهُمْ عُنُودٌ وَأَنْتِيسَافُ
 وَقِحْطٌ ثُمَّ ذَافٌ وَانْجِعَافُ
 وَيُرْجَى بَعْدَهُ سَبْعُ عَجَافُ
 فَلَا أَعْنَابَ فِيهِ وَلَا السُّلَافُ
 وَبِرٌّ ضِيَعُوه وَمَا تَلَافُوا
 وَأَرْضُوا رَبَّكُمْ تَوْبًا وَصَافُوا
 غَوِيٌّ فِي "البَطَالَةِ" لَا يَخَافُ
 وَمَعَهَا عَجْبُهُ سَمٌّ زُعَافُ
 وَتَلْبِيَّةٌ بَطْوَعٍ وَالطَّوَافُ
 فِبَارِي كَالْعِدَا وَبِدَا الخِلَافُ
 وَمَقْصَدُهُ فِسَادٌ وَأَزْدِهَافُ

ثم من اعتراضات العلماء وشبهاتهم التي أشاعوها في الجهلاء، أنهم
 قالوا إن هذا الرجل لا يعلم شيئاً من العربية، بل لا حظَّ له من

الفارسية، فضلا من دَخَلِه في أساليب هذه اللهجة، ومع ذلك مدحوا أنفسهم وقالوا إنا نحن من العلماء المتبحرين. وقالوا إنه كل ما كتب في اللسان العربية، من العبارات المحبَّرة، والقصائد المبتكرة، فليس خاطره أبا عُذرهما، ولا قريحته صدفَ لآليها ودُررها، بل ألفها رجل من الشاميين، وأخذ عليه كثيرا من المال كالمستأجرين، فليكتب الآن بعد ذهابه إن كان من الصادقين.

فيا حسرة عليهم! إنهم لا يستيقظون من نعاس الارتياب، ولا يسرحون النواظر في نواضر الصدق والصواب، ولا ينتهجون مهجَّة المنصفين. وتركوا الله لأشاوي حقيرة، وأهواء صغيرة، فالأم يعيشون كالمتنعمين؟ يُصاَصون كما يصاَصُ الجرؤ ولا يستبصرون، ويضاهي بعضهم بعضا في الجهل فهم متشابهون. وإذا قيل لهم تعالوا إلى حقِّ ظهَر، وقمر بَهْر، فتشمزَّ قلوبهم ويهربون مستنفرين. أولئك الذين هتك الله أسرارهم، وكدر أنظارهم، فتراهم كالعميين. يريدون أن يفسدوا في الأرض عند إصلاحها وجزَّءوا الأمانة والدين. أتنتفعهم أقوالهم إذا سئل ما أفعالهم، أو يفيدهم إنادهم إذا ظهر فسادهم، أو يُبرؤون مع كونهم من الفاسقين؟ لا يتقون عالم سريرتهم، ولا ينتهون عن صغيرتهم ولا كبيرتهم، ويعثون في الأرض معتدين. يتركون أوامر الله ولا يكثرثون، ويتبعون زهوهم ولا يباليون، ويسعون إلى السيئات ولا ينتهون. أيطنون أنهم يتركون في الدنيا ولذاتها، ولا يُقادون إلى الحاقَّة ومجازاتها، ولا يُؤخذون كالمفسدين؟ يحسبون أنهم ليسوا بمرأى رقيبهم، ولا بمشهد حسيبهم؟ ألا يعلم الله

ما يجترحون كالحائنين؟

يلجون غابة الشيطان، ويذرون حديقة الرحمن، ويمرّون بالحق مستهزئين. وإذا قيل لهم اقبلوا الحق كما قبل العلماء وأثوني كما أتى الأتقياء، صعّروا خدودهم كالمستكبرين. وقالوا لولا ألف بعد الشاميّ كتابا، إن كان صادقا لا كذّابا، فليأتنا الآن بكتاب بعده إن كان من المؤلّفين.

فجئنا الآن لنؤتيهم نظيرها، بل كبيرها، والله موهن كيد الكاذبين. وقد ألفنا هذه الرسالة، ورتّبناها كما رتّبنا الرسائل السابقة، لندحض حجّتهم، ونقطع أرومّتهم، ونمزّق معاذير المبطلين. وإن هذا منّي في العربية كآخر الكتب، وأودعتها من ملح الأدب، والأشعار النخب، ليكون صائغا لدفع صخب الصاخبين، ولنهدم دار المفترين من بنياهما، وندوس جيفة وجودهم في مكانها، ولنلطم على وجوه المجترئين.

وإن كمالي في اللسان العربي، مع قلة جهدي وقصور طلبي، آية واضحة من ربي، يُظهر على الناس علمي وأدبي، فهل من معارض في جموع المخالفين؟ وإني مع ذلك علّمت أربعين ألفا من اللغات العربية، وأعطيت بسطة كاملة في العلوم الأدبية، مع اعتلاي في أكثر الأوقات وقلة الفترات، وهذا فضل ربي أنه جعلني أبرع من بني

الفرات،* وجعلني أعذبَ بيانا من الماء الفرّات. وكما جعلني من الهادين المهديين، جعلني أفصح المتكلمين. فكم من ملح أُعطيها، وكم من عذراء عُلِّمتها! فمن كان من لُسْنِ العلماء، وحوَى حُسْنَ البيان كالأدباء، فإني أستعرضه لو كان من المعارضين المنكرين. وقد فُقتُ في النظم والنثر، وأُعطيْتُ فيها نورا كضوء الفجر، وما هذا فَعَلَ العبد، إن هذا إلا آية رب العالمين. فمن أبي بعد ذلك وانزوى، وما بارزني وما انبرى، فقد شهد على صدقي ولو كتم الشهادة وأخفى.

يا حسرة على الذين يذكرونني بإنكار! لِمَ لا يأتونني في مضمار؟ يشهقون في مكائهم كحمار، ولا يخرجون كممار، إن هم إلا كعود ما له ثمر، أو كنخل ليس عليه ثمر، ثم مع ذلك يخدعون الجاهلين. إن هم إلا كدار خربة، أو جدران منقضة. يعلمون الناس ما لا يعملون، ويقولون ما لا يفعلون. خبت نارهم، وتوارى أوارهم، وختم الله على قلوبهم، وأبادهم بعد شحوبهم، فتراهم كأموات غير أحياء ساقطين.

وكان في هذه الديار تسعة رهط من الأشرار، وكانوا مفسدين في الأرض ولا ينتهجون مهجة الخيار، وما كانوا صالحين. ووجدتهم في الكبر والإباء، كالجُملة المتناسبة الأجزاء، أو كأمرض

* المراد من "بني الفرّات" هنا بحسب ما ورد في الترجمة الفارسية تحت هذه الكلمة: أربعة من الوزراء العباسيين وهم: أبو الحسن علي، وعبد الله جعفر، وأبو عيسى إبراهيم، ووالدهم محمد بن موسى بن حسن بن الفرّات. (الناشر)

متشابهة في الخبث والإيذاء، ورأيت كلهم من المعادين المعتدين.
 فمنهم رجلٌ أمرتسري يقال له "الرسل البابا". إنه امرؤ لا يعرف
 صدقا ولا صوابا، وكذبَ بآياتنا كذابا. وخالطه زُمراً من السفهاء،
 فقعدوا بجذء شمس كالحرباء، وقالوا إنا نريد أن نعارضك كالآدباء،
 ولكننا لا نجئك كما تريد بل أتنا كالغرباء، وإذا جئت فنبارز
 كالمعارضين.

فَعُتُّ المسعى في أول نظري إلى الجهلاء، وأخذتني أنفةٌ أن
 أحضُر مجلس الحمقاء، ثم رأيتُ أن لا تعينفَ على من يأتي الكيف.
 فقبلتُ كل ما قالوا، وملتُ إلى ما مالوا، وكتبت إليهم أني أقبل أن
 أكتب مناقلا في ندوتكم، فعليكم أن تكتبوا مثل ما أكتب أمام
 مُقلتكم، أو أسمعوني ما أكتب كما زعمتم كمال درايتكم،
 فصمتوا وسكتوا كأنهم من الميتين.

وقد أشيع بعده الاشتهارُ وأُفشيَ الأخبار، وأمضضناهم
 وأحفظناهم فصمتوا كرجلٍ ألثغ، وسكتوا كالذي على تُربِ الهوان
 مُرغ، فانقلبنا عنهم كالمصورين. فيا حسرة على "الرسل البابا"! إنه
 ما خاف رباً تواباً، ورأى ذلاً وتباباً، وإنه شبَّ ناراً ثم أحمدها خوفاً
 واضطراراً، وجال في شجون، ثم خاف مخلبَ منون، ونسي كل
 مُجون، ومع ذلك ما ترك سيرَ المتكبرين.

ألا أيها الأَبَّارُ مثلَ العقاربِ إلام تُري كبراً وليَّ الشَّواربِ
 ما أنت إلا قطرةٌ تحتَ وَهدةٍ فلا تصادم بالبحور الزغاربِ

ومن التسعة الذين أشرتُ إليهم رُجِلٌ يقال له "أصغر"، وإنه يزعم في نفسه كأنه أكبر، ويزدريني مفترياً من غير استحياء، ويسبني في محافل وأملاء، فسيعلم كيف يُجعل من الأصغرين. إنه يتبع الهوى، ولا يجري طَلَقاً مع التقوى. يريد أن يفضَّ ختوم الشهوات ولو بالجنايات، ويحتجني قطوف اللذات ولو بالمحرمات. وكذلك تأهبت له الرفاق، وازداد من المنافقين النفاق، واستحکم في الطباع الذميمة، حتى سبق إخوانه في النميمة. وما أرى مدحرةً لشیطانه، إلا أن أدعوه لامتحانه، فأقبل عليه إقبال طالب المناضل، ليتين أمر الجاهل والفاضل. وإنه كان يطلبني لوغاه، فاليوم تُرضيه بما يهواه. وقد خاطبته من قبل ذات العويم، لأزيل ما علا قلبه كالغيم، فقلتُ آتني كالرائد وتمتع من الموائد، فإن كنت رأيناك كسحابٍ مُطِيرٍ، أو ثبت معك من البلاغة كميرٍ، فنؤمن بك وبحسن بيانك، ونشيع صفات علو شأنك، فيسوغ لك بعده أن تغلظنا في إملائنا، وتأخذ أغلاط إنشائنا، كما أنت تظن كالجاهلين الغافلين. ومع ذلك نحسبك أنك ذو مقولٍ جريٍّ، ونابعةٌ كلام عربيٍّ، ويجوز لك ما لا يجوز لغيرك من ازدراء، والطعن على إملاء، وتُحمد عند الناس كالفاضلين المؤدبين.

وأما طرُزُ ازدرائك، قبل إثبات علمك وعلائك، فما هذا إلا لبوسٌ سفیه يترك الحياء، وعادةٌ ضريرٍ لا يرى الأضواء، فيحسب النهار المنير ظلاماً، والوابل جهاماً. وإن كنت من رجال هذا المضمار، ووليحة أهل هذه الدار، فأرنا كمال إنشائك قبل

ازدرائك، وأت بكتاب من مثل هذا الكتاب، ثم اجعل بيني وبينك حكماً أحداً من أولي الأبواب؛ فإن شهد الحكم على كمالك وحسن مقالك، وظن أنك جئت بأحسن من كلامي، وأريت نظاماً أجمل من نظامي، فلك من بعد أن تتخذ جدِّي عبثاً، وتجعل تبري خبثاً، وأن تحسب دُرِّي العُرَّ كليل دامس، وبياني الواضح كطريق طامس، وتُشيع عثاري في العالمين. وإن لم تفعل، ولن تفعل، فأتق لعن اللاعنين.

وإن كنت قد أزمعت حربي فبارز	ألا لا تعبني كالسفيه المشارز
وتلمزني في كل آن كمارز	وإنك تذكري كرجل محقر
أتحسب خضرائي بجمق كتارز	وإنا سمعنا كل ما قلت نخوة
قد بان أنك تزدريني كغارز	وما كنت صوّلاً ولكن دعوتني
ويفقأربي عين دون معارز	ولا خير في طعوك يا ابن تكبر
مناهج فقا فاجأئك كفارز	فحرج على نفس ثبيدك واجتب
على ما عراق وثب بقلب آرز	ولا تنتهج سبل الغواية واكتب

ومن المعترضين المذكورين شيخ ضالّ بطالويّ وجارّ غويّ، يقال له محمد حسين، وقد سبق الكلّ في الكذب والمين. وإنه أبو واستكبر، وأشاع الكبر وأظهر، حتى قيل إنه إمام المستكبرين ورئيس المعتدين، ورأس الغاوين. هو الذي كفرني قبل أن يكفر الآخرون، واعترض على كتبي وأظهر جهله المكنون. فقال إن تلك الكتب مشحونة من الأغلاط، وساقطة في وحل الانحطاط، وليست كماء

مَعِين. وَإِنْ هَذَا الرَّجُلُ مِنَ الْجَاهِلِينَ، وَكُلُّ مَا يُوْجَدُ فِي كِتَابِهِ مِنْ مُلْحَمَةٍ وَقِيَا فِيهَا، فَلَيْسَ قَرِيحَتُهُ حَجَرَ أَثَافِيهَا، بَلْ تِلْكَ كَلِمٌ خَرَجَتْ مِنْ أَقْلَامِ الْآخِرِينَ.

فَقُلْتُ: يَا شَيْخَ التَّوَكِّي، وَعَدُوَّ الْعَقْلِ وَالنُّهْيِ، إِنْ كَتَبْتِي مَبْرَأَةً مِمَّا زَعَمْتَ، وَمَنْزَهَةً عَمَّا ظَنَنْتَ، إِلَّا سَهُوَ الْكَاتِبِينَ، أَوْ زَيْغَ الْقَلَمِ بَتَغَافُلٍ مِنِّي لَا كَجَهْلِ الْجَاهِلِينَ. فَإِنْ قَدَرْتَ أَنْ تُثَبِّتَ فِيهَا عَثَارًا، فَخُذْ مِنِّي بِحِذَاءِ كُلِّ لَفْظٍ غَلَطَ دِينَارًا، وَاجْمَعْ صَرِيحًا وَنِضَارًا، وَكُنْ مِنَ الْمُتَمَوِّلِينَ. وَهَذَا صِلَةٌ تَلَاثَمَ هَوَاكُ، وَتَقَرُّ بِهَ عَيْنَاكَ، وَتَسْتَرِيحُ بِهِ رِجْلَاكَ، فَتَنْجُو مِنَ السَّفَرِ الدَّائِمِ، وَلَا تَتِيهِ كَالشَّحَاذِ الْهَائِمِ، وَتَقْعُدُ كَالْمُتَنَعِمِينَ، وَتَعْنِي بِهِ عَن جَعَائِلِ أُخْرَى وَمَكَاثِدِ شَيْءٍ، وَإِشَاعَةِ "عَدُوِّ السُّنَّةِ"[❖]، وَوَعْظِ الدَّجْلِ وَالْفَرِيَةِ، وَتَعِيشِ كَالْمُسْتَرِيحِينَ. بِيَدِ أُنِي أُرِيدُ أَنْ أَرَى قَبْلَهُ رِيًّا فَصَاحَتِكَ، وَأَشَاهِدُ أُرِيحَ بِلَاغَتِكَ، لِأَفْهَمُ أَنَّكَ مِنْ عُلَمَاءِ هَذِهِ الصَّنَاعَةِ وَمِنْ أَهْلِ تِلْكَ الصُّوْلَةِ، وَلَسْتَ مِنَ الْجَاهِلِينَ الْمُحْجَوِّينَ الْعَمِيْنَ.

فَاتَّفَقَ لَوْ شَاءَ حَظُّهُ الْمُبْخُوسُ وَنَكَّدَ طَالِعُهُ الْمُنْحُوسُ، أَنَّهُ مَا قَبِلَ هَذِهِ الصَّلَةَ، وَمَا سَنَى نَفْسَهُ لِيَقْبَلَ هَذِهِ الشَّرِيْطَةَ، وَخَشِيَ الذَّلَّةَ وَالْفَضِيْحَةَ، وَتَوَارَى كَالْمُتَخَوِّفِينَ، وَقَالَ لَوْ نَشَاءَ لَقَلْنَا مِثْلَ هَذَا وَلَكِنَّا لَسْنَا بِفَارَغِينَ. وَمَا خَرَجَ مِنْ بَيْتِهِ، وَمَا أَرَى نَمُوذَجَ زَيْتِهِ، وَمَا تَفَوَّهَ إِلَّا كَالْمُتَصَلِّفِينَ. وَتَحَرَّيْتُ فِي صِلَتِي مَرْضَاتِهِ، لِأَنْقُدَ بِحِيلَةٍ حَصَاتِهِ،

❖ إشارة إلى جريدة كان الشيخ البطالوي يملكها وجررها باسم "إشاعة السنة". (الناشر)

وأَمْخَضَ لَبْنَهُ وَأَرِيَّ جَهْلَاتِهِ. فَكَأَنَّ النَّعَاسَ رَاوِدَ آمَاقِهِ، أَوْ الْخَنَاسَ حَبَّبَ إِلَيْهِ إِبَاقَهُ، فَرَأَيْتُ أَنْ حَرَّهُ قَدْ بَاخَ، وَعَزَمَهُ هَرِمَ وَشَاخَ، وَتَرَأَى كَالْمُضْمَحِلِّينَ.

ووالله إني أستيقن أنه لا يقدر على إملاء سطر أو سطرين، وكل ما يقول يقول من المين، بل لا أظن أن يقدر على فهم مقالي، ويبين في المجلس فحواء أقوالي، وإنه من الكاذبين. وإني أعرفه من قديم الزمان، ولكني كنت أستر حاله وأسعى للكتمان، بل إذا نطق أحد لإفشاء سره، فطويته على غره، وصننت عرضه من الناهشين. ثم رأيت أنه لا يسدر عند غلوائه، ولا ينزع عن نفسه ثوب خيلائه، ولا يترك سير جهلاته، ولا يتوب من خزعيلائه، بل يظن أنه ينفعه كيدُه، ويُسخرُّ به صيده. فلما رأيت أن أعماله ستؤبِقُه، وأن دلالة سيقلقه، أشعتُ من سيئاته بعض الهنات، وإنما الأعمال بالنيات، وعليها مدار المجازاة.

ثم نعود إلى قصتنا الأولى، فاعلم أنه دعانا ثم أبي، وما حملة على ذلك إلا خوف أحرقه بنار اللظى، فإنه قرأ كتبنا فوجدها كدرٌ أجلى، فأوجس في نفسه خيفة وما أبدى، وأنقضَ ظهره ما رأى. فما تمالك أن يشجع قلبه المزهود، ويحضر الموطن الموعود، ويُري حناه والعود. بل أشار إلى رُجَيْلٍ وَعُغْبٍ، وفرخ ليس عليه إلا زَغْبٌ، واحتال وقال إني لن أخرج من جُحْرِي، وهذا تلميذي قد رُبِّيَ في حَجْرِي، فبارزه إن كنت من المبارزين، وإني أنساب كالتنين من خوف القتالين.

فقلت يا هذا، لا تحسب أن تنجو من مخلبي بكيد، ولو صرت
 جدًّا أبا زيد، وإني أعلم حيل الماكرين. ألا تعلم أنه من أدنى
 تلاميذك، وما شرب إلا جرعة من نبئك، فإنه ليس كمثلك في
 الطاقة العلمية، ولا على غلوة من مراحلك المعلومة، فضلا من أن
 يكون أكبر منك في العلوم، فلا تفوّض أمرك إلى الغيِّ الزَّغوم، ولا
 تكن من الخادعين. وأنت تعلم أنه كابن بُوحك، أو شقيق روحك،
 وما شرب إلا من صَبوحك، وقد غُذِيَ بلبانتك، فقصّته تُطوى
 بقصّتك، وبعد هزيمتك هزيمته بين، وإذا مرّقنا الصلْب فقد كُسِرَ
 لِيْنٌ. فإذا سمع قولي، ورأى صولي، ففرَّ كفرَّ الوعل، وانساب إلى
 جُحره بالمعل، ونسي كلَّ أريز كالمُتندمين. وأحفظته بكلم مؤلمة،
 وألفاظ موجعة، لعله يقوم لمناضلة، ويأتيني لمصارعة، فما أتى
 المضمار، وحسب أنه يلج النار، واختفى كالمذروعين.

ثم ما غير على ذلك الزمان إلا شهر أو شهران، حتى أشاع في
 تحقيري رسالة، وعزا إليّ زندقة وضلالة، ليستر به جهلا يُخزيه،
 ويزين شأنه في أعين تابعيه، ويكثر سواد طالبيه، ويؤذي قلوب
 المسترشدين. فلما رأيت أنه أفاق من إغمائه، وضحك بعد بكائه،
 ورجع إلى أدراجه، واستراح بعد انزعاجه، ورقأت دَمْعته، وانفثأت
 لوعته، رأيت أن أتم عليه الحجّة مرة ثانية، وأسلط عليه من الحق
 زبانية، فاليوم قمتُ لهذا المرام، لعل الله يهديه إلى دار السلام. إنه
 يحول بين المرء وقلبه وإنه يشفي المؤمنين.

فيا أيها الشيخ الضالّ، والمفتري البطال، ألم يأن لك أن تتوب

وتلّين البال؟ أتفرح بحياة فيها البلايا، وفي آخرها المنايا؟ طالما أيقظتُك بالوصايا، ووضعتُ أمام عينيك المرايا، ثم أقسمتُ لعلك تطمئن بالألأيا، فقلتُ والله إني لست بمفتر وأعوذ بربّ البرايا، أن أسعى إلى الخطايا، فما ظننت إلا ظن السوء وما تكلمت إلا كالمجترئين. أيها الشيخ إن الدنيا فانية، والذي يبقى فهي حضرة ربانية. ترى رجلا متنعما في المساء، ثم ترى ذات بكرة أنه ليس من الأحياء. والموت يُهلك أفعى أعجز الرائي، وكل شيء فانٍ ويبقى وجه الله الباقي. وأيمُ الله، إن ديمتي قد انهلّت من الرحمن، لا من مساعي الإنسان، ولذلك دعوتك أن تأتيني كصديق حميم، فأظهرت نفسك كصديق حميم.

وإني أُيدتُ من الله القدير، وأعطيت عجائب من فضله الكثير. ومن آياته أنه علّمني لسانا عربية، وأعطاني نكاتا أدبية، وفضّلني على العالمين المعاصرين. فإن كنت في شك من آيتي، وتحسب نفسك حُديًا بلاغي، فتحامَ القولَ والقليل، واكْتُبْ بحذائي الكثير أو القليل، وجدّد التحقيق ودع ما فات، وبارز في موطن وعين له الميقات. وعليّ وعليك أن نحضر يوم الميقات بالرأس والعين، ونناضل في الإملاء كالخصمين. فإن زدت في البلاغة وحسن الأداء، وجمت بكلام يسرّ قلوب الأدباء، فأتوب على يدك من كل ما ادعيتُ، وأحرق كل كتاب أشعته أو أخفيتُ، والله إني أفعل كذلك، فانظروا أني أقسمتُ وآليتُ. فارحَمِ الأمةَ المرحومة، وعالجِ الفتنَ المعلومة، فإن الفتن كثرت، والآفات ظهرت، وكُفِّرَ فوج من المسلمين من

غير حق والألسنُ فيهم طالت، فقمُ رحمك الله ولا تقعد كالمنافقين.
 ألا تستيقن أنك من العلماء الراسخين، والأدباء القادرين، ثم مع
 هذا تعلم أن الله مؤيد الصادقين، ومُخزي الكاذبين، والله مولى أهل
 الحق ولا مولى للمفتريين. وإن لم تقدر على المقابلة، ولم تقم
 للمناضلة، فرضيتُ بأن تُسمِعني ما أكتب من العبارات الأنيقة،
 والجمل الرشيقة، وكفاني لو فزتَ بهذا* الطريقة، وأظهرتَ ما قلتُ
 على الحاضرين.

ولكني جربتك مذ أعوام، أنك لا تقوم في مقام، ولا تريد قطع
 خصام، وتحت في آخر الأمر حيلة واهية، ومعاذير منسوجة كاذبة،
 وتفتر كالمحتالين. فعليك أن لا تحتال كأيام سابقة، وتحضر على
 الميقات في رباغة مقررّة، فإن كنتَ غالبا وفاءً أمرُك إلى غلبة ورشاد،
 فأخفِض لك جناحَ انقياد، وأتوب على يدك باعتقاد، كالذي قفل
 من ضلال إلى سداد. فألفتُ اليوم وجهي إليك يا أبا المراء، وإلى
 إخوانك من العلماء، وأدعوكم إلى مأدبتي الجفلى، وأبلغ دعوتي إلى
 أهل الحضارة والفلا، فعليكم أن لا تعرضوا عن هذه الدعوة كما
 أبيت ذات مرة في الأيام السابقة، فإن هذا يقضي بين الصادقين
 والكاذبين، وتتجلى منه آية رب العالمين، وتستبين سبيل المجرمين.

بيد أني لا أظن أن تحضروا لفصل هذه القضية، والرجاء منقطع
 منك ومن أمثالك في هذه الخطة، فكأنني أستنزل العُصم من

* سهو، والصحيح: "بئذه". (الناشر)

المعقل، أو أطلب الولد من الثاكل، أو أستقري الدهن من الحديد، أو أبغي الطيب من الصديد، وأرى أني أرجع إليكم كالمخاطبين، وأضيع وقتي في سؤال من المحرومين. وإني لم أفعل ذلك لو لم يكن مقصدي إتمام الحجّة، وإظهار الحق على الخاصة والعامة. وإني أدعوكم أولاً إلى المباهلة، فإن لم تقبلوا فأدعوكم إلى أن يجيئني أحد منكم لرؤية آيتي ويلبث عندي إلى السنة الكاملة، وإن لم تقبلوا فأدعوكم إلى المناضلة في العربية، بالشريطة المذكورة والآتية، وإن لم تستطيعوا فرادى فرادى، فما أضيّق الأمر على من عادى، بل آذن لكم أن يجلس بعضكم ببعض كالناصرين.

ثم اعلم أيها الشيخ الضال، والدجال البطال، أن الثمانية الذين هم ثمار عُودك، ووقودُ وقودك، الذين أُدخلوا في التسعة المخاطبين، فمنهم شيخك الضال الكاذب نذيرُ المبشّرين، ثم الدهلوي عبد الحق* رئيس المتصّلين، ثم عبد الله التونكي، ثم أحمد علي

* الحاشية: هذا الرجل لا يحسب العربية المباركة أمّ الألسنة، بل هي عنده مستخرجة من العبرية، التي هي لها كالفضلة، ويستيقن أن إثبات هذه الخطّة عقدة مستصعبة الافتتاح، أو كزئدة مستعسرة الاقتداح، مع أنّا فرغنا من فتح هذا الميدان في كتابنا "من الرحمن"، وسوف يُشاع في الديار والبلدان، فيومئذ تسودّ وجوه المنكرين. وإنّا نصرنا في أفكارنا، وأيدنا في أنظارتنا، من الله رب العالمين. ودُسنا فيه كلّ دوس الذين يقولون إن العربية ما سبق غيره بطوس، بل هي كاللباس المستبدل أو الوعاء المستعمل، وكشيء هو سَقَطُ صِلْفَةٍ غير مُعِين.

وإنّا أثبتنا دعوانا حق الإثبات، وأرينا الأمر كالبيدهيات، مصييين غير مُسَقَطِينَ. فيا حسرة على وهن آراء علمائنا الجهلاء! إنهم إلّا كالعجماء، ولا يدرون مناهج تحقيق

الأشياء، وما كانوا متدبرين. كثرت البدعات وعمّ البلاء، وكلّ طرف فتنه صمّاء والعلماء السفهاء، فارحمّ عبادك يا أرحمّ الراحمين.

وأما سبب هذا الخطأ الأزحل، فاعلم أنّهم قوم رغبوا في فضالة المآكل، وما جاهدوا لتجديد المنهل، وما حبسوا أنفسهم على معارك التحقيق، بل رضوا كطباع خرقاء بالتقليدات، وأطلقوا جرد الإمعان والإثبات، كالتغافل غير مباليين. وإنا إذا فحصنا حق الفحص الدقيق، وبلغنا الأمر إلى أقصى مراتب التحقيق، فانكشف أن الألسن كلها مأخوذة من العربية، ومستخرجة من خزائن هذه اللهجة، والآن موجودة كالوجوه المسوخة المغيرة الملوحة، وكالجروح المضروبين. وقد بدّل نظامها، وغير موضعها ومقامها، وأخرجت من جواهر منتظمة، وسلسلة ملتزمة، وتاهت كالمترقبين. فكأن بعضها اليوم على رباوة، وبعض آخر في همد متكنا على هراوة، والبعض فنع وجهه برداء، ونكر شخصه كغرماء. ومنها ألفاظ كأنها دُفنت وبوعدت من الأتراب، وهيل عليها الزوائد كهيل التراب، وإنا نعرفها اليوم كرجال تكلموا في الأحداث، وبعثوا بعد ما سُمع نعيهم بنوازل الانبثا، أو كإلف يُفقد، ويُسترجع له بعد مناحة تُعقد، فخرجت الآن كنعش الميت، أو الغلام الفارّ من البيت، أو النسيب المهجور من الأقارب، أو الابن الغائب المهرب. فمنها لفظ ما رأى انتلام حبة، وقفل كما سافر بسلامة وصحة. ومنها ما رأى أثر الاستلام، حتى بلغ إلى الاحترام، وبكت عليه وراثه كالنوادب، بعد ما كان كأرباب المآدب، وصار كالجنائز بعد ما كان من أهل الجنائز.

وما هذا من الدعاوي التي لا دليل عليها، ولا من الأمور التي لا يوجد الحق لديها، بل عندنا ذخيرة من هذه النظائر، ووجوه شافية للمرتاب الحائر. والذين مارسوا اللغات وقتشوها، وأطلعوا على عجائب العربية وشاهدوها، فأولئك يعلمون بعلم اليقين، ويستيقنون كعارف الحق المبين، أن العربية متفرّدة في صفتها، وكاملة في مفرداتها، ومعجبة بحسن مركباتها، ولا يبلغها لسان من ألسن الأرضين.

وأما اليونانية والعبرانية والهندية وغيرها، فتجد أكثر ألفاظها من قبيل البري والنحت، وشتان ما بينها وبين المفرد البحت. وذاك يدل على أن تلك الألسنة ليست من حضرة العزة، ولا من زمان بدء البرية، بل تشهد الفراسة الصحيحة، ويقي القلب والقريحة، أما نُحنت عند هجوم الضرورات، وصيغت عند فقدان المفردات، وسُرقت مفرداتها من العربية بأنواع الخيانات، ففكر إن كنت من الطالبين.

وهذا أمر ثبت بدلائل واضحة، وبراهين ساطعة، وعندنا ذخيرة عظيمة من مفردات إنكليزية، وجرمنية، ولاطينية، وروسية، ويونانية، وهندية، وصينية، وفارسية، وألسن

أخرى من ديار بعيدة وقرية، وقد أثبتنا أنها حُرِّفَت من كَلِمٍ عربية مطهَّرة، لو رأيتها لَمَلتَ خوفاً ورعباً، ولأقررتَ بصدق كلامنا كالتائين الراجعين. وقلتَ سَبِحَانَ الَّذِي جَعَلَ الْعَرَبِيَّةَ أُمَّ الْأَلْسِنَةِ، كما جَعَلَ مَكَّةَ أُمَّ الْقُرَى، وجعل رسولنا أُمِّيًّا هَذِهِ الْإِشَارَةَ، وجعلها خاتَمَ ألسُنِ الْعَالَمِينَ، كما جعل رسولنا خاتَمَ النَّبِيِّينَ، وجعل القرآنَ أُمَّ الْكُتُبِ، وجعله صُحُفًا مطهَّرةً فيها كُتِبَ الْأَوَّلِينَ وَالْآخِرِينَ.

ثم سألَ الْمُعْتَرِضَ الْمَذْكُورَ عَنْ وَجْهِ تَسْمِيَةِ بَعْضِ أَسْمَاءِ يَحْسِبُهَا جَامِدَةً. فَاعْلَمْ أَنَّهَا وَكَذَلِكَ أَسْمَاءٌ أُخْرَى لَيْسَتْ جَامِدَةً حَقِيقَةً، بَلْ هُوَ ظَنُّ الَّذِينَ مَا تَدَّبَرُوا حَقَّ التَّدْبِيرِ، وَاتَّبَعُوا رِوَايَاتٍ مَسْمُوعَةً، وَحَرَّمُوا عَلَى أَنْفُسِهِمْ أَنْ يَتَعَمَّقُوا كَالْحَقِيقِينَ. أَلَا يَعْلَمُونَ أَنَّ اللَّهَ عَلَّمَ آدَمَ الْأَسْمَاءَ لِيُكَمِّلَهُ عِلْمًا وَحِكْمَةً؟ فَمَا ظَنُّهُمْ.. أَعَلَّمَهُ أَسْمَاءَ مُهْمَلَةً؟ أَيْعَزُّونَ إِلَى اللَّهِ لِعَوًّا خَالِيًّا عَنِ الْمَعْنَى الْمَكْنُونِ، وَيَجْعَلُونَهُ وَاضِعًا لِعَوًّا؟ سَبِحَانَهُ وَتَعَالَى عَمَّا يَظُنُّونَ! أَلَا يَعْلَمُونَ أَنَّ الْغَرَضَ مِنْ تَعْلِيمِ الْأَسْمَاءِ كَانَ إِفَادَةً، وَالْمُهْمَلُ لَا يَزِيدُ مَعْرِفَةً وَلَا بَصِيرَةً، وَيَعْلَمُ كُلُّ مَنْ لَهُ حِظٌّ مِنَ الدِّهَاءِ أَنَّ عَدَمَ عِلْمِ الْأَشْيَاءِ لَا يَدُلُّ عَلَى عَدَمِ الْأَشْيَاءِ، وَإِنَّا لَا نَعْلَمُ مَنَافِعَ كَثِيرًا مِنَ الْمَحْلُوقَاتِ، مَعَ أَنَّهُ لَا يُقَالُ إِنَّهَا خَالِيَةٌ مِنَ النِّفَعِ فِي عِلْمِ رَبِّ الْكَائِنَاتِ. بَلِ الْإِعْتِلَاقُ بِمِثْلِ هَذِهِ الْأَوْهَامِ، مِنْ سَبْرِ الْجَهْلَاءِ السَّفَهَاءِ اللَّغَامِ، فَاتَّقِ اللَّهَ وَلَا تَعْرِ الْمَهْمَلَاتِ إِلَى مَنَعِ الْحَقِّ وَالْحِكْمَةِ، فَإِنَّ اللَّهَ مَا عَلَّمَ آدَمَ إِلَّا مَعَانِيَ الْأَسْمَاءِ الَّتِي هِيَ مَفَاتِيحُ الْأَسْرَارِ الْمَخْزُونَةِ.

وَمِنْ أَجْلَى الْبِدْهِيَّاتِ أَنَّ الشَّرِيعَةَ الْكَبِيرَى الْأَبَدِيَّةَ، وَالْمَلَّةَ الْخَيْطَةَ الْكَامِلَةَ، تَقْتَضِي أَنَّ تَنْزِيلَ بِلْسَانٍ تَكُونُ أَكْمَلَ الْأَلْسِنَةِ، وَأَوْسَعِ الْأَوْعِيَّةِ، وَلَا سِيَّمًا شَرِيعَةً جَاءَتْ بِكِتَابٍ فِيهِ إِعْجَازُ الْبَلَاغَةِ وَالْفَصَاحَةِ، وَهُوَ يَطْلُبُ عِبَارَاتٍ مِنْ مِثْلِهِ مِنْ جَمِيعِ الْأَلْسِنِ وَكَافَّةِ الرِّيَّةِ. فَأَنْتَ تَعْلَمُ أَنَّ هَذَا الْإِعْجَازَ تَحْتَاجُ إِلَى كِمَالِ اللَّسَانِ، وَيَقْتَضِي أَنَّ يَكُونَ ظَرْفُهَا وَسَبْعًا كَمِثْلِ قُوَى الْإِنْسَانِ. فَإِنَّ اللَّسَانَ كَوِعَاءَ لِمَتَاعِ الْبَيَانِ، وَكَصَدْفٍ لُدْرٍ الْعُرْفَانِ. فَلَوْ فَارَضْنَا أَنَّ لِسَانًا أُخْرَى أَكْمَلُ مِنَ الْعَرَبِيَّةِ، فَلَزِمْنَا أَنْ نُقَرَّ أَنَّهَا أَسْبَقَ مِنْهَا فِي مِيَادِينِ الْبَلَاغَةِ، وَأَنْسَبَ لِحَسَنِ آدَاءِ الْمَعَارِفِ الدِّينِيَّةِ، فَكَأَنَّ اللَّهَ أَحْطَأَ فِي تَرْكِهِ إِيَّاهُ، وَإِنْزَالِهِ الْقُرْآنَ فِي هَذِهِ اللَّهْجَةِ النَّاقِصَةِ. فَتُبَّ أَيُّهَا الْمَسْكِينُ وَلَا تَتَّبِعْ أَهْوَاءَ النَّفْسِ الْأَمَّارَةَ، وَاتَّقِ غِشَاوَةَ الْجَهْلِ وَالْعَصْبِيَّةِ، وَلَا تَتْرَفِ رَأْسَكَ كَالْمَجْتَرِّينَ.

وَأَمَّا قَوْلُكَ أَنَّ لَفْظَ التَّحْتِ وَالتَّرَابِ وَالمِيزَابِ أَسْمَاءَ جَامِدَةٍ لَا يَثْبُتُ اسْتِقْرَاقُهَا مِنْ الْكِتَابِ، فَهَذَا خَطَأٌ مِنْكَ وَمِنْ أَمْثَالِكَ، وَفَسَادٌ نَشَأَ مِنْ دِرَايَتِكُمْ النَّاقِصَةَ، لَا مِنْ قُصُورِ شَأْنِ الْعَرَبِيَّةِ الْمُبَارَكَةِ الْكَامِلَةِ. أَيُّهَا الْمَسْكِينُ! إِنْ لَفْظَ التَّحْتِ كَانَ فِي الْأَصْلِ طَبِيَّةً، وَمَعْنَاهُ

السهارنفوري من المقلّدين، ثم سلطان المتكبرين الذي أضاع دينه بالكبر والتوهين، ثم الحسن الأمروهي الذي أقبلَ عليّ إقبالَ مَنْ لبس

ما كان تحت القدم وحاذى الفوقَ جهةً، ثم بَدَلِ الطاءِ بالثاءِ والياءِ بالحاءِ بكثرة الاستعمال، ونظائره كثيرة، وشهد عليه كثير من الرجال ولو كنت من الغافلين. ثم ليس لفظ التحت جامداً كما هو زعمك من الجهالة، بل تصريفه موجود في كتب القوم وأهل هذه الصناعة. وفي الحديث: لا تقوم الساعة حتى تظهر التحوت.. أي قوم أراذل لا يؤبه لهم يكون لهم الحكم والجبروت، ويكونون من المكرمين.

وأما التراب فاعلم أن هذا اللفظ مأخوذ من لفظ التّرب، وتربُّ الشيء: الذي خُلِقَ مع ذلك الشيء عند أهل العرب. وقال ثعلب: تَرَبُّ الشَّيْءِ: مثله وما شابهَ شيئاً في الحسن والبهاء. فعلى هذين المعنيين سُمِّيَ التراب تراباً لكونها في خلقها تَرَبَّ السماء، فإن الأرض خلقت مع السماء في ابتداء الزمان، وتشابهاً في أنواع صنوع الله المئان. وكذلك خلق الله سبع سموات منورة من الشمس والقمر والنجوم، وخلق كمثلهن سبع أرضين منورة من الرسل والأنبياء وورثاتهم من أهل العلوم. ولعل لفظ "سبع أرضين" كان إشارة إلى عدّة الأقاليم، والله أعلم بما أراد من هذا التقسيم، وهو يعلم ما في العالمين. وقال "ابن بُزْج": كل ما يصلح فهو متروب بعد الإصلاحات، فالأرض تراب لما أصلحها الله بالعمارات والفلاحات. فخذ من هذين المعنيين ما هو عندك محبوب، واترك سائر المستعجلين.

وأما لفظ الميزاب، فلو فكّرت فيه كأولي الألباب لكنت من المتندمين. أيها المحروم من موائد الأدب! اعلم أن هذا اللفظ مشتق من لفظ الأَرَب، يُقال أَرَبَ الماء: أي جرى. فارجع يا خادع التوكي إلى "لسان العرب" أو كتب أخرى، ولا تُهَلِكْ نفسك في غيابة جُبِّ الجاهلين.

وإني تركت بعض ألفاظك المعروضة خوفاً من الإطناب لا من الاستصعاب، بل هي أظهرُ اشتقاقاً عند أولي الألباب، ففكّر كطلاب الحق والصواب، وما أظن أن تفكر كالعاقلين. فسلام عليكم لا نبتغي الجاهلين.

ألسنت هو الرجل الذي قرأ عند ذكر بحث التوفي "توفي ما ضمنت" استشهاداً، وما علم فرّق الفعل والتفعيل غباوةً وعناداً؟ فهذا علمكم وفهمكم وفضلكم، ثم بهذا العقل كبركم وزهوكم وبخلكم وتكفيركم وتحقيركم. فنعوذ بالله الحفيظ المعين، من شرّ الخائنين الجاهلين المفتريين. منه

الصفافة وخلع الصداقة، واعتلقت أظفاره بعرضي كالذياب، ومخلبه بثوبي كالكلاب، ونطق بكلم لا ينطق بمثلها إلا شيطان لعين. وآخريهم الشيطان الأعمى، والغول الأغوى، يقال له رشيد الجنجوهي، وهو شقيّ كالأمروهي ومن الملعونين.

فهؤلاء تسعة رهط كفرونا، أو سبونا وكانوا مفسدين. ونذكر معهم الشيخين المشهورين، يعني الشيخ إله بخش التونسوي، والشيخ غلام نظام الدين البريلوي، وإهما من المعرضين، فندخلهم في الذين خاطبناهم ليكونا من المصدقين أو المكذبين. وما نقول فيهم شيئاً إلا بعد أن يُرينا الله وهو أعلم بما في صدور العالمين، بيد أننا نجعلهما غرضاً لهذه المخاطبات، وندعوها للمباهلة أو رؤية الآية أو للمناضلة في عربي مبين.

وأما الآخرون الذين سمّوا أنفسهم موليين، مع كونهم من الغاوين الجاهلين، فننزه الكتاب عن ذكرهم ولا ننجس الصحيفة من كثرة ذكر الخبيثين من غير ضرورة، وإهم من الجاهلين المعلمين، الذين يقلدون أكابرهم وليسوا من المتدبرين.

فأيها الشيخ إني أعلم أنك رئيس هذه الثمانية، وكمثل إمام لتلك الفئة الباغية، وهم لك كالتلاميذ في الغواية أو كالمسحورين. فأتني بخيلك ورجلك، واجمع كل دجلك وانحت أنواع الافتنان، وأتني مع جموعك من أهل العدوان، وصل علي كحشبي صال علي كعبة الرحمن، ثم شاهد قدرة الله الديان. فإن أعرضتم وحسرتم،

وواريتم الوجوه وفررتهم، فتقع الحجة عليكم إلى أبد الأبدين، ويعرف الذين يلقفون منك القول المجهول والهذيان المفتول، أنك كنت من الكاذبين. فيكون عليك كما يُيكى على الخاسرين، ويسترجعون كما يُسترجع للمصابين، فتصبح كالمخذولين. فناج نفسك في القبول أو الإعراض، من قبل أن تُذبح كالعرباض، وتلحق بالملومين. وقد سمعت أن الشريطة الأولى التي أُحكمت للمناضلة، ووجبت لكل من قام للمباحثة، هو أن يأتي مناضل بكتاب من مثل هذا الكتاب، النظم بعدة النظم، والنثر بعدة النثر، مع تسوية التوشية والاختضاب. فإن أتيتم بكتاب من مثل هذه الرسالة، وفعلتم ذلك إلى شهرين لإراءة الفضل والجلالة، فأجيئكم كالمعتذرين التائبين. وإن لم تقدرُوا فعليكم أن تقرُّوا بأنه آية من آيات الرحمن، لا من فعل الإنسان، وما أشقَّ عليكم بعد إقراركم إلا أن تصافوني مصدِّقين. ذلك خير الطرق وأحسن الانتظام، وفيه أمن للفريقين من تكاليف السفر ومتاعب ترك المقام، وحرص آخر لا بد منه للمسافرين. ثم إن اتفق بعده أنكم ظننتم لي الظنون، وزعمتم أنه أُلّفه الشاميون، أو أعان عليه قوم آخرون، فأقبل أن تناضلوني بالمشافهة، بعد أن تقرُّوا بأنكم عجزتم من نوع تلك المقابلة، ولكم أن تقولوا إنَّ هذا إنشاء الشاميين، ولا قبل لنا بالشاميين، أو تقولوا إن هذا من علماء آخرين، ولا طاقة لنا بهم إنهم من الأدباء الكاملين، أو تقولوا إنه من المولوي الحكيم نور الدين، فما لنا أن نناضل بهذا الفاضل الأجل، إنا من الجاهلين الأميين. وإني بعده سأجيد قبلاً

مُشافهًا، وأحسب هذا الأمر تافهًا، فتعرفوني بعد حين. إن الذين يكونون لله فيكون الله لهم. ألا إن أولياء الله هم الغالبون في مآل الأمر على المخالفين. كتب الله لأغلبنا أنا ورسلي، إن الله لا يُخزي عباده المأمورين.

هذا شرط بيني وبينكم، فسنوا أنفسكم. ثم أتم تعلمون أن فضيلة العلماء باللسان العربية، وهي المفتاح لفتح أسرار العلوم الدينية، وهي مدار فهم معارف* الفرقانية، والذي ليس من نحارير الأدباء، ولا كمثل نوابغ الشعراء، فلا يمكن أن يكون من فحول الفقهاء، والراسخين في الشريعة الغراء، أو من العارفين الفقراء، بل هو كالأنعام، وأحد من العوام والجاهلين. وأما الرجل الذي يقدر على كلام غَضَّ طَرِيًّا في هذه اللهجة، ويسلك عند نطقه مسالك الفصاحة والبلاغة، ويعلم فروق المفردات وخواص التأليفات وكوائف الجُمْل المركبة، فهو الذي جعله الله رحيب الباع، خصيب الرباع، في هذه الخزائن العلمية.

ومن ادعى أنه من الواصلين والفقراء العرفاء، وليس من عارفي هذه اللسان كالأدباء، ففقره ليس فقر سيد الكوئين، بل هو سواد الوجه في الدارين. ولا تعجب بهذا البيان، ولا تغضب قبل العرفان، فإن الذي يدعي محبة الفرقان، كيف يصدأ ذهنه في هذه اللسان، وكيف تقاصر مع دعاوي المحبة وشوق الجنان، وكيف يمكن أن لا

* أي: فهم معارف الآيات الفرقانية. (الناشر)

يتجلى لقلبه لطف الرحمن، ولا يعلمه الله لسان نبيه بالامتنان.
ثم إنها معيار حب الرسول والفرقان، فإن الذي أحبَّ العربية
فحبُّ الرسول ﷺ والفرقان أحبُّها، ومن أبغضها فببغض الرسول
والفرقان أبغضها، فإن المحبين يُعرفون بالعلامات، وأدنى درجة الحب
أن تَحُنُّكَ للمضاهاة، حتى تؤثر طرق المحبوب وتجعلها من المحبوبات،
ومن لم يعرف هذا الذوق فإنه من الكافرين في مشرب العاشقين.
ومن أحبَّ الفرقان وسيدنا خاتم الأنبياء، كما هو شرط المحبة
والوفاء، فما أظن أن يبقى في العربية كالجهالاء، بل يقوده حبه إلى
أعلى مراتب الكمال، ويسبق كلَّ سابق في المقال، ويصير نطقه
كالدرة البيضاء، ويضمخ كلامه بطيب عجيب ويودع أنواع
الصفاء، ففكر كالمحبين. ولولا الحب لما أعطيتها، فمن الحب لقيتها،
فهذا آية حبي من أرحم الراحمين. والحمد لله على ما أعطى وهو
خير المنعمين.

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

علمي من الرحمن ذي الآلاءِ
 كيف الوصول إلى مدارج شكره
 الله مولانا وكافلُ أمرنا
 لولا عنايته بزمنِ تطلبي
 بشرى لنا إنا وجدنا مؤنسًا
 أعطيتُ من إلفِ معارفِ لبها
 نتلو ضياءَ الحقِّ عند وضوحه
 نفسي نأتُ عن كل ما هو مظلمٌ
 غلبتُ على نفسي محبةً وجهه
 لما رأيت النفسَ سدَّتْ مُهَجِّي
 الله كهفُ الأرضِ والخضراءِ
 برُّ عَطُوفٍ مَأْمَنُ الغرماءِ
 أحدٌ قديم قائم بوجوده
 وله التفردُ في المحامد كلها
 العاقلون بعالمين يرونه
 هذا هو المعبود حقًا للورى
 هذا هو الحبُّ الذي آثرته
 هاجتُ غمامةً حبه فكأنتها
 ندعوه في وقت الكروب تضرعًا

بالله حُزْتُ الفضلَ لا بدهاءِ
 نشني عليه وليس حولُ ثناءِ
 في هذه الدنيا وبعد فناءِ
 كادت تُعَفِّيني سيولُ بكائي
 ربًّا رحيمًا كاشفَ الغمِّاءِ
 أنزلتُ من حبِّ بدار ضياءِ
 لَسْنَا بمبتاعِ الدجى ببراءِ
 فأنختُ عند منورِي وجنائِي
 حتى رميتُ النفسَ بالإلغاءِ
 ألقىتها كالميتِ في البيداءِ
 ربُّ رحيم ملجأُ الأشياءِ
 ذو رحمةٍ وتبرُّعٍ وعطاءِ
 لم يتخذْ ولدًا ولا الشركاءِ
 وله علاءٌ فوق كلِّ علاءِ
 والعارفون به رأوا أشياءِ
 فردُّ وحيد مبدء الأضواءِ
 ربُّ الورى عين الهدى مولائي
 ركبُ على عُسْبُورَةِ الحدِّواءِ
 نرضى به في شدَّةٍ ورخاءِ

فَفَدَى جَنَانِي صَوْلَةَ الْحَوْجَاءِ*
 غَمَرْتُ أَيَادِي الْفَيْضِ وَجَهَ رَجَائِي
 فِي النُّورِ بَعْدَ تَمَزُّقِ الْأَهْوَاءِ
 وَأَرَى الْوُدَادَ يَلُوحُ فِي أَهْبَائِي
 فَوَجَدْتُ بَعْدَ الْمَوْتِ عَيْنَ بَقَاءِ
 فَأَرَى الْغُرُوبَ يَسِيلُ مِنْ إِهْرَائِي
 وَالْقَلْبَ يُشَوِّى مِنْ خِيَالِ لِقَاءِ
 وَأَرَى التَّعَشُّقَ لَاحٍ فِي سِيمَائِي
 وَوَجَدْتُهَا فِي حُرْقَةٍ وَصَلَاءِ
 فِي كُلِّ رَشْحِ الْقَلَمِ وَالْإِمْلَاءِ
 قَدْ مُلِئَ مِنْ نُورِ الْمَفِيزِ سِقَائِي
 وَالْآخِرُونَ تَكَبَّرُوا لَغَطَاءِ
 حَسَدَتْ لِنَأْمٍ كُلِّ ذِي نِعْمَاءِ
 كَلْبٌ وَعَقَبَ الْكَلْبِ سِرْبُ ضِرَاءِ
 فَالْيَوْمَ نَقَضِي دَيْنَهُمْ بَرِبَاءِ
 لَكِنْ نَزَا جَهْلٌ عَلَى الْعِلْمَاءِ
 نَقَفُوا كِتَابَ اللَّهِ لَا الْآرَاءِ
 مِنْ كُلِّ زَنْدِيقٍ عَدُوٍّ دَهَاءِ

حَوْجَاءُ* أُلْفَتُهُ أَثَارَتِ حُرَّتِي
 أَعْطَى فَمَا بَقِيَتْ أَمَانِي بَعْدَهُ
 إِنَّا غَمَسْنَا مِنْ عِنَايَةِ رَبِّنَا
 إِنَّ الْحُبَّةَ خُصِمَتْ فِي مُهْجَتِي
 إِنِّي شَرِبْتُ كَثُوسَ مَوْتٍ لِلْهَدَى
 إِنِّي أَذِبْتُ مِنَ الْوُدَادِ وَنَارِهِ
 الدَّمْعُ يَجْرِي كَالسِّيُولِ صَبَابَةً
 وَأَرَى الْوُدَادَ أَنْارًا بَاطِنًا بَاطِنِي
 الْخَلْقُ يَبْعُونَ اللَّذَاذَةَ فِي الْهُوَى
 اللَّهُ مَقْصِدُ مُهْجَتِي وَأُرِيدُهُ
 يَا أَيُّهَا النَّاسُ اشْرَبُوا مِنْ قَرَبَتِي
 قَوْمٌ أَطَاعُونِي بِصَدَقِ طَوِيَّةٍ
 حَسَدُوا فَسَبَّوْا حَاسِدِينَ وَلَمْ يَزَلْ
 مَنْ أَنْكَرَ الْحَقَّ الْمَبِينَ فَإِنَّهُ
 آذَوْا وَسَبَّوْنِي وَقَالُوا كَافِرٌ
 وَاللَّهُ نَحْنُ الْمُسْلِمُونَ بِفَضْلِهِ
 نَخْتَارُ آثَارَ النَّبِيِّ وَأَمْرَهُ
 إِنَّا بَرَاءٌ فِي مَنَاهَجِ دِينِهِ

* حصل السهو في هذا البيت إذ جاء بشكله الصحيح في كتاب آخر لحضرته القليبي

"من الرحمن" كالاتي:

فَفَدَى جَنَانِي صَوْلَةَ الْحَوْجَاءِ (الناشر)

حَوْجَاءُ أُلْفَتُهُ أَثَارَتِ حُرَّتِي

نورُ المهيمن دافع الظلماءِ
 ويلٌ لكم ولهذه الآراءِ
 كَفَرْتَنِي بالبغضِ والشحناءِ
 والنارِ قد تبدو من الإيراءِ
 زَلَّتْ بك القدمانِ في الأنحاءِ
 فالوقتِ وقتِ العجزِ لا الخيلاءِ
 فعليكِ يسقطُ حجرٌ كلَّ بلاءِ
 فاخشِ الغيورِ ولا تَمُتْ بجفاءِ
 لا تنتحرِ واطلبِ طريقَ بقاءِ
 هَوْنٌ عليكِ ولا تَمُتْ بعناءِ
 تَمْسِي تُعْضُ يمينكِ الشلاءِ
 خفاشِ ظلماتِ عدوِّ ضياءِ
 ويلٌ لكلِّ مزورٍّ وشَّاءِ
 مالي وديناكم؟ كَفانِ كِسائِي
 بَعُدَتْ جنازتنا من الأحياءِ
 حَكَّامنا الظانينِ كالجهلاءِ
 يحمي أحبَّته من الإيواءِ
 أو ما سمعتَ مآلَ شمسِ حِراءِ
 في الأرضِ دُسَّتْ عينكِ العمياءِ
 سُتِرَتْ عليكِ حقيقةُ الأنباءِ
 أفهذه من سيرةِ الصلحاءِ

إنا نطيع محمدًا خيرَ الوري
 أفنحن من قومِ النصراري أكفرُ
 يا شيخَ أرضِ الخبثِ أرضِ "بطالة"
 أذيتني فأخشِ العواقبَ بعدهُ
 تَبَّتْ يداكِ تبعَتَ كلَّ مفاسدِ
 أودى شَبَابُكَ والنوائِبُ أُحرفَتْ
 تبغي تباري والدوائرَ من هوى
 إني من المولى فكيف أُتَبَّرُ
 أفتضربنَّ على الصِّفَاةِ زجاجةً
 أتركُ سبيلَ شرارةٍ وخبائثةُ
 تُبُّ أَيُّهَا الغالي وتأتي ساعةُ
 يا ليت ما ولدتُ كمثلكِ حاملِ
 تسعى لتأخذني الحكومةُ مجرمًا
 لو كنتُ أُعْطيتُ الولاءَ لَعَفْتُهُ
 مُتَنَا بموتِ لا يراه عدوُّنا
 تُغري بقولِ مَفْتَرِي وتخرِّصُ
 يا أَيُّهَا الأعمى أُنْكَرُ قَادِرًا
 أنسيتَ كيفِ حمى القديرِ كليمُهُ
 نحو السماءِ وأمرها لا تنظرنُ
 غرَّتْكَ أقوالُ بغيرِ بصيرةِ
 أدخلتَ حزبكِ في قلبِ ضلالةِ

أَشَقَّقْتَ قَلْبِي أَوْ رَأَيْتَ خَفَائِي
 وَاللَّهِ يَكْفِي الْعَبْدَ لِإِزْرَائِي
 فَاصْبِرْ وَلَا تَتْرُكْ طَرِيقَ حَيَاةِ
 أَنْظُرْ أَعْنَدَكَ مَا يَصُوبُ كَمَا نِي
 فَارْتَبْ كَمَا نِي قَاعِدَا بَحْذَائِي
 فَالآنَ كَيْفَ قَعَدْتَ كَاللَّكْنَاءِ
 عَفْصٌ يُهَيِّجُ الْقِيءَ مِنْ إِصْغَاءِ
 ظَهَرَتْ عَلَيْكَ رَسَائِلِي كَقِيَاءِ
 سَمَّيْتَنِي صَيْدًا مِنَ الْخِيَلَاءِ
 خَوْفًا مِنَ الْإِحْزَاءِ وَالْإِعْرَاءِ
 رَعْبًا مِنَ الرَّحْمَنِ لِإِدْرَاءِ
 أَنْظُرْ إِلَى ذَلٍّ مِنْ اسْتِعْلَاءِ
 مِنْ خَلَقَهُ الضَّعْفَاءُ دُودَ فَنَاءِ
 أَصْبَحْتَ كَالْأَمْوَاتِ فِي الْجَهْرَاءِ
 قَدْ كُنْتَ تَحْسِبُنَا مِنَ الْجَهْلَاءِ
 كُنَّا نَعُدُّكَ نَوْجَةَ الْحَثْوَاءِ
 قَوْلِي كَقِنْوِ النَّخْلِ فِي الْخَلْقَاءِ
 بَلْ بِالسِّيُوفِ الْجَارِيَاتِ كَمَا
 أَصْلِي فُؤَادَ الْحَاسِدِ الْخَطَّاءِ
 وَأَرَدْتُ أَنْ تَطَأَنِّي كَعَفَاءِ
 وَاللَّهِ كَهْفِي مُهْلِكُ الْأَعْدَاءِ

جَاوَزْتَ بِالتَّفْكَيرِ مِنْ حَدِّ النَّقْيِ
 كَمَلُّ بَجْبُثِكَ كُلِّ كَيْدٍ تَقْصِدُ
 تَأْتِيكَ آيَاتِي فَتَعْرِفُ وَجْهَهَا
 إِنِّي كَتَبْتُ الْكُتُبَ مِثْلَ خَوَارِقِ
 إِنْ كُنْتَ تَقْدِرُ يَا خَصِيمَ كَقَدْرَتِي
 مَا كُنْتَ تَرْضَى أَنْ تُسَمِّيَ جَاهِلًا
 قَدْ قَلْتَ لِلسَّفَهَاءِ إِنْ كَتَابَهُ
 مَا قَلْتَ كَالْأَدْبَاءِ قُلُّ لِي بَعْدَمَا
 قَدْ قَلْتَ إِنِّي بِاسِلٌ مَتَوَعَّلُ
 الْيَوْمَ مَنِي قَدْ هَرَبْتَ كَأَرْبِ
 فَكَّرُ أَمَا هَذَا التَّخَوُّفُ آيَةٌ
 كَيْفَ النِّضَالِ وَأَنْتَ تَهْرُبُ خَشِيَةً
 إِنْ الْمَهِيْمِينَ لَا يَجِبُ تَكْبَرًا
 عُفِّرْتَ مِنْ سَهْمٍ أَصَابَكَ فَاجئًا
 الْآنَ أَيْنَ فَرَرْتَ يَا ابْنَ تَصَلَّفِ
 يَا مَنْ أَهَاجُ الْفِتَنِ قُمْ لِنِضَالِنَا
 نَطْقِي كَمَوْلِي الْأَسْرَةَ جَنَّةِ
 مُزَّقَتْ لَكِنْ لَا بَضْرِبُ هَرَاوَةَ
 إِنْ كُنْتَ تَحْسُدُنِي فَيَا بَاسِلُ
 كَذَّبْتَنِي كَفَّرْتَنِي حَقَّرْتَنِي
 هَذَا إِرَادَتِكَ الْقَدِيمَةَ مِنْ هَوَى

نصرٌ من الرحمن للإعلاءِ
 ربُّ قديرٌ حافظُ الضعفاءِ
 إنَّ التكبرَ أردأُ الأشياءِ
 تقفو هواك وتنزونَ كظباءِ
 عاديتَ ربًّا قادرًا بمـرئائي
 والأجرُ يكتبُ عندَ كلِّ بلاءِ
 إنَّ المهيمنَ طالبُ الطلبةاءِ
 هيئاتِ ذاكِ تخيُّلِ السفهاءِ
 والكرَّةُ الأولى لأهلِ جفاءِ
 في الأنبياءِ وزمرةِ الصلحاءِ
 إنا نموتُ بعزةٍ قعساءِ
 والخلقُ يأتينا لبغي ضياءِ
 في الصالحاتِ يُعدُّ بعدَ فناءِ
 هل تُحرقنَ ما صنعهُ بنائي
 ونذوقُ نعماءَ على نعماءِ
 جاءت بك الآياتِ مثل ذكاءِ
 شموا رِيحَ المسكِ من تلقائي
 كالطيرِ إذ يَأوي إلى الدَّفواءِ
 ما بقي إلا فضلةُ الفضلاءِ
 يأتونني من بعدُ كالشهداءِ
 سجدتُ لها أممٌ من العرفاءِ

إني لشرُّ النَّاسِ إن لم يأتني
 ما كان أمرٌ في يديك وإِنَّهُ
 الكبرُ قد ألقاك في دركِ اللظى
 خَفَّ قَهْرَ رَبِّ ذِي الجلالِ إلى متى
 تبغي زوالي والمهيمنَ حافظي
 إنَّ المقرَّبَ لا يضاعُ بفتنة
 ما خاب مَنْ خافَ المهيمنَ رَبَّهُ
 هل تطمَعُ الدنيا مذلةً صادق
 إنَّ العواقبَ للذي هو صالحٌ
 شهدتُ عليه، خصيمٍ، سُنَّةَ رَبِّنا
 مُتٌ بالتغيظِ واللَّظى يا حاسدي
 إنا نرى كلَّ العلى من ربنا
 هم يذكرونك لاعنينَ وذكُرنا
 هل تهْدَمَنَّ القصرَ قصرَ إلهنا
 يرجون عثرةَ جدِّنا حسداؤنا
 لا تحسبنَ أمري كأمرِ غُمَّةٍ
 جاءت خيارُ الناسِ شوقًا بعدما
 طاروا إليَّ بألفةٍ وإرادةٍ
 لفظتُ إليَّ بلادنا أكبادها
 أو من رجالِ الله أخفي سرهمُ
 ظهرت من الرحمن آيات الهدى

لا يهتدون بهذه الأضواء
هم يشرّهون كأئسر الصحراء
في نائبات الدهر والهيحاء
ذهب البلاء فما أحسُّ بلائي
قد خاب بالتكفير والإفتاء
أنظرُ إلى ذي لوثة عجماء
والله كان أحقَّ للإرضاء
فتطايروا كتطايير الوقعاء
لمقالة ابن بطالة وعواء
فارت عيون تمرّد وإباء
فاليوم قد مالوا إلى الأهواء
ما بقي إلا لبسة الإغواء
أو صالح يخشى زمان جزاء
في فرقة قاموا لهدم بنائي
أو أنفًا زاغت من الخيلاء
فسينجعن في آخرين ندائي
غسّ تلا غسًّا بنقع عماء
يمسي ويضحى بينهم للقاء

أما اللئام فينكرون شقاوة
هم يأكلون الجيف مثل كلابنا
حشوا ولا تخشى الرجال شجاعة
لما رأيتُ كمالَ لطفٍ مهيمي
ما خاب مثلي مؤمن بل خصمنا
العمرُ يبدو* ناجذيه تغيظًا
قد أسخطَ المولى ليرضي غيره
كسرتُ ظرف علومهم كزجاجة
قد كفروا من قال إني مسلم
خوف المهيمن ما أرى في قلبهم
قد كنتُ أملُ أنهم يخشونه
نصّوا الثياب ثياب تقوى كلهم
هل من عفيف زاهد في حزهم
والله ما أدري تقيًا خائفًا
ما إن أرى غير العمائم واللحي
لا ضير إن ردّوا كلامي نحوه
لا تنظرن عجبا إلى إفتائهم
قد صار شيطان رجيم حبهم

* سهو، والصحيح: "بيدي"، كما تدل عليه الترجمة الفارسية. (الناشر)

أعرى بواطنهم لباس رياء
شيئاً ألدّ لنا من الإيذاء
إني طليح السفر والأعباء
من حمل إيذاء الورى وجفاء
نعم الجنى من نخلة الآلاء
ما زادني إلا مقام سناء
يؤذونني بتحوّب ومواء
بل مُنيّة نشأت من الأهواء
وحسبتُ أن الشرّ تحت مرأى
فعلوا كمثل الدُخّ من إغضائي
لا ذرّة من عيشة خَشْناء
فرّوا من البأساء والضراء
فكأنهم كالحِثي للإحماء
ببلاغة وعدوبة وصفاء
أو قولُ عاربة من الأدباء
أملى الكتابَ بكرة ومساء
سلب العنادُ إصابة الآراء
قالوا كلام فاسد الإملاء
لا فعل شامي ولا رفقائي
نبي منازلنا على الجوزاء
وتستروا في غيب الخوقاء

أعمى قلوب الحاسدين شرورهم
آذوا وفي سبل المهيمن لا نرى
ما إن أرى أثقلم كجديدة
نفسى كعُسْبرة فأحنق صلبها
هذا وربّ الصادقين لأجتنني
إن اللئام يحقرون وذمهم
زَمَعُ الأُناس يَحمَلقون كثعلب
والله ليس طريقهم نهج الهدى
أعرضتُ عن هديانهم بتصامم
حسبوا تفضّلهم لأجل تصبّري
ما بقي فيهم عفة وزهادة
قعدوا على رأس الموائد من هوى
جمعوا من الأوباش حزب أراذل
لما كتبتُ الكتب عند غلوهم
قالوا قرأنا ليس قولاً جيّداً
عرب أقام بيته مستتراً
أنظرُ إلى أقوالهم وتناقض
طوراً إلى عرب عزوه وتارة
هذا من الرحمن يا حزب العدا
أعلى المهيمن شأننا وعلومنا
خلّوا مقام المولويّة بعده

ففهتُ ما لا فهمه أعدائي
 بمرَّ العقولَ بنصرة وبهاءِ
 لولا العناية كنتُ كالسفهاءِ
 فأرى عيونَ العلم بعد دعائي
 إن رُمتَ درجات فكنُ كعفاءِ
 وأبيتُ كالمستعجل الخطّاءِ
 يرنو بإمعان وكشف غطاءِ
 رُحماً على الأزواج والأبناءِ
 فحذارِ ثم حذارِ من أرجائي
 هذا خيالك من طريق خطّاءِ
 لا سُودداً ورياسة وعلاءِ
 معطي الجزيل وواهب النعماءِ
 لا زال أهل المجد والآلاءِ
 يؤذون بالبهتان قلبَ براءِ
 في زمرٍ موتى لا من الأحياءِ
 من هذه الأصوات والضوضاءِ
 والشمس لا تخفى من الإخفاءِ
 فضلاً عليّ فصرتُ من نُحلاءِ
 طالت أيادينا على الفقراءِ
 من أرضك المنحوسة الصيّداءِ
 إن متَّ يا خصمي على الشحناءِ

قد حُدّدتُ كالمهفات قريحتي
 هذا كتابي حاز كلَّ بلاغة
 الله أعطاني حقائق علمه
 إنني دعوت الله ربّاً محسناً
 إن المهيمن لا يُعزّز بنخوة
 والله قد فرطت في أمري هوّى
 الحرّاً يستعجلن بل إنه
 يخشى الكرامُ دعاءَ أهل كرامة
 عندي دعاء خاطف كصواعق
 والله إني لا أريد إمامة
 إنّنا نريد الله راحة روحنا
 إنا توكلنا على خلاقنا
 من كان للرحمن كان مكرماً
 إن العدا يؤذونني بخباثة
 هم يُذعرون بصيحة ونعدّهم
 كيف التخوف بعد قرب مُشجّع
 يسعى الخبيث ليُطفئن أنوارنا
 إن المهيمن قد أتم نواله
 نعطي العلوم لدفع متربة الورى
 إن شئت ليست أرضنا ببعيدة
 صعبٌ عليك زمان سُؤلٍ محاسبٍ

قد جئتُ مثلَ المُرْنِ في الرَّمْضاءِ
 أو ماءً نَقَعِ طافِحِ لظِمَاءِ
 قد جئتُ عندَ ضرورةٍ ووباءِ
 لا يقبلونَ جوائزِي وعطائي
 وصدورهم كالحرّةِ الرّجلاءِ
 ونبيّه وطوائفَ الصلحاءِ
 من غير أن البخلَ فارَ كماءِ
 يذرونَ حُكْمَ شريعةِ غرّاءِ
 بالدّينِ صوّالينَ من غلّواءِ
 أعطيتُ نوراً من سراجِ حراءِ
 ينمو وينشأ من ضياءِ ذكاءِ
 لا خير في من كان كالكهماءِ
 ممّن يدعُ الحقَّ كالغثاءِ
 فارحَمَ وأنزلهم بدارِ ضياءِ
 فاربأ مآلَ الأمرِ كالعقلاءِ
 وأمّدي بالنعمة والآلاءِ
 ودخلتُ دارَ الرشدِ والإدراءِ
 إلا الذي أعطاه نعمَ لقاءِ
 تأتيه أفواجٌ كمثَلِ ظمَاءِ
 تعنوا له أعناقُ أهلِ دهاءِ
 تأتي له الأفلاكُ كالخدماءِ

ما جئتُ من غيرِ الضرورةِ عابثاً
 عينٌ جرتَ لعطاشِ قومٍ أضجروا
 إني بأفضالِ المهيمِنِ صادقٍ
 ثم اللئامِ يكذبونَ بخبثهم
 كَلِمُ اللئامِ أسنّةٌ مذبوبةٌ
 من حاربِ الصديقَ حاربَ ربّه
 والله لا أدري وجوهَ كُشاحةِ
 ما كنتُ أحسبُ أنهم بعداوتي
 عاديتُهم لله حينَ تلاعبوا
 ربّبتُ من دَرِّ النبيِّ وعينه
 الشمسِ أمّ والهلّالِ سليلها
 إني طلعتُ كمثَلِ بدرٍ فانظروا
 يا ربّ أيّدنا بفضلكِ وانتقمِ
 يا ربّ قومي غلّسوا بجهالةِ
 يا لائمي إن العواقبَ للثّقى
 اللهُ أيّدني وصافي رحمةِ
 فخرجتُ من وهْدِ الضلالةِ والشقا
 والله إن الناسَ سَقَطُ كُلّهم
 إن الذي أروى المهيمِنُ قلبه
 ربّ السماءِ يُعزّه بعنايةِ
 الأرضِ تُجعلُ مثلَ غلمانِ له

الأرض لا تُفني شمسَ سماءِ
 زكّاه فضلُ الله من أهواءِ
 واسبقْ بئذِ النفسِ والإعداءِ
 وستُحسَّنْ كالكلبِ يومَ جزاءِ
 مَنْ كان عند الله من كرماءِ
 تمشي كمشي اللصِّ في الليلاءِ
 يومَ النشورِ وعند وقتِ قضاءِ
 فاصبرِ كصبرِ العاقلِ الرئاءِ
 موجِ كموجِ البحرِ أو هوجاءِ
 جلدُ من الفتیانِ للأعداءِ
 نُزجي الزمانَ بشدّةِ ورخاءِ
 والسَّيلِ لا يخلو من الغثاءِ
 لو حلَّ بيبي عاسِلُ البِداءِ
 قومًا أضعوا الدينَ للشحناءِ
 فتكنسوا كالظبي في الأفلاءِ
 وتهاكوا في بخلهم ورياءِ
 نحوي كمثلِ مبصرِ رثاءِ
 أنظُرْ إلى إيذائهم وجفاءِ
 حدُّ الطُّباتِ ينير في الهيحاءِ
 تغلي عداوته كرعِدِ طخاءِ
 يهذي كنسوانِ بحجبِ خفاءِ

مَنْ ذا الذي يُخزي عزيزَ جنابهِ
 الخلقُ دودٌ كلهم إلا الذي
 فأنهضُ له إن كنتَ تعرفُ قدره
 إن كنتَ تقصدُ ذلَّهُ فتُحقرُ
 غلبتُ عليك شقاوةٌ فتحقرُ
 صعبٌ عليك سراجنا وضيأونا
 تهذي وأيمُ الله ما لك حيلة
 برقٌ من المولى نريك وميضه
 وأرى تغيطكم يفور كلجةً
 والله يكفي من كُماةِ نضالنا
 إنا على وقتِ النوائبِ نصبرُ
 فتن الزمانِ ولدنَ عند ظهوركم
 عُفنا لُقيّاكم ولا أستكره
 اليوم أنصحكم وكيف نصاحتي
 قلنا تعالوا للنضالِ وناضلوا
 لا يبصرون ولا يرون حقيقةً
 هل في جماعتهم بصيرٌ ينظرُ
 ما ناضلوني ثم قالوا جاهلُ
 دعوى الكُماةِ يلوح عند تقابلِ
 رجلٌ ببطنٍ "بطالة" بطالةً
 لا يحضر المضمارَ من خوفِ عرا

والموت خير من حياة غطاء
لا تُنجيكَ سيرة الأطلاء
أرض محربة من الحرباء
لا يركن أحد إلى إرزاء
ويريك مُراني بحار دماء
خوفاً فكيف الحال عند مرائي
وفصيلها تأثيرها ببهاء
البدر لا يغسو بلغي ضراء
ولئن سطا فيريك قعر عفاء
وأثرت نقع الموت في الأعداء
باريتم ابن كريبه فجاء
أنى على الشحناء والبغضاء
لنرد إيماناً إلى الغبراء
تُجري دموعاً بل عيون دماء
لفلاح مُدلجين في الليلاء
فحضرت حملاً كئوس شفاء
وتحيروا سبل الشقا بإباء
بل كافر ومزور ومراء
مولاي ختم الرسل بحر عطاء
أفأنت تُبعدنا من الآلاء
أنت الذي كالروح في حوبائي

قد آثر الدنيا وجيفة دشتها
يا صيد أسيافي إلى ما تأبز
نجست أرض "بطالة" منحوسة
إني أريدك في النضال كصائد
صدر القناة ينوش صدرك ضربه
جاشت إليك النفس من كلماتنا
أعطيت لسنا كاللقوع مروياً
إن شئت كذ كل المكائد حاسداً
كذبت صديقاً وجرت تعمداً
ما شم أنفي مرغماً في مشهد
والله أخطأتم لنكبة بختكم
إني بحقدك كل يوم أرفع
لنا ثرياء السماء وسمكه
أنظر إلى الفتن التي نيراها
فأقامني الرحمن عند دخاها
وقد اقتضت زفات مرضى مقدمي
لما أتيت القوم سبوا كالعدا
قالوا كذوب كيدبان كذبة
من مخبر عن ذلتي ومصيبتي
يا طيب الأخلاق والأسماء
أنت الذي شغف الجنان محبة

أنت الذي قد قام للإصباة
 أيَّدتُ بالإلهام والإلقاء
 نبَّحى رقاب النَّاسِ من أعباءِ
 روحي فدثك بلوعةٍ ووفاءِ
 وبكل ما أخبرت من أنباءِ
 جنناك مظلومين من جهلاءِ
 إنا نحبُّك يا ذكاءَ سخاءِ
 يسعَى إليك الخلق للإركاءِ
 تهوي إليك قلوب أهل صفاءِ
 نورَّت وجه المدن والبيداءِ
 شأنًا يفوق شؤونَ وجه ذكاءِ
 عين الندا نبتت لنا بحراءِ
 فإذا رأيتُ فهاج منه بكائي
 لسنا كرجلٍ فاقد الأعضاءِ
 نبني منازلنا على الجوزاءِ
 رأس اللئام وهامة الأعداءِ
 غولاً لعينا نطفة السفهاءِ
 نحسُّ يُسمَى "السَّعد" في الجهلاءِ
 ضاهى أباه وأمه بعماءِ
 من عبدة الأصنام كالآباءِ
 كانت مُبيدة أمه العمياءِ

أنت الذي قد جذب قلبي نحوه
 أنت الذي بوداده وبحبه
 أنت الذي أعطى الشريعة والهدى
 هيئات كيف نفرّ منك كمفسدٍ
 آمنتُ بالقرآن صُحفِ إلها
 يا سيدي يا مؤئل الضعفاءِ
 إنَّ المحبة لا تضاع وتشتري
 يا شمسنا انظرْ رحمةً وتحننا
 أنت الذي هو عينُ كلِّ سعادةٍ
 أنت الذي هو مبدء الأنوارِ
 إني أرى في وجهك المتهللِ
 شمسُ الهدى طلعت لنا من مكةٍ
 ضاهتْ آيةُ الشمس بعضَ ضيائه
 نسعى كفتيان بدينٍ مُحَمَّدٍ
 أعلى المهيمن هممنا في دينه
 إنا جعلنا كالسيوف فندمغُ
 ومن اللئام أرى رجلاً فاسقاً
 شكسُ حبيثٍ مُفسدٍ ومزورٍ
 ما فارقَ الكفرَ الذي هو إرثه
 قد كان من دُود الهنودِ وزرعهم
 فالآن قد غلبت عليه شقاوةٌ

إني أراه مُكذِّبًا ومكفِّرًا
 يُؤذِي فما نَشَكَو وما نَتَأَسَّفُ
 كحلِّ العنَادُ جفونَه بعِجاجةٍ
 يا لَاعِني إنَّ المهيمِنَ يَنْظُرُ
 الحقَّ لا يُصَلِّي بنارِ خديعةٍ
 إني أراك تَميسُ بالخِيلاءِ
 لا تَتَّبِعُ أهواءَ نَفْسِكَ شقوةً
 فرسٌ حَبِيبٌ حَفَّ ذُرَى صهواته
 إنَّ السُّمومَ لَشَرُّ ما في العالَمِ
 آذيتني حَبثًا فَلَسْتُ بِصَادِقٍ
 اللهُ يُخزِي حَزَبَكُم وَيُعزِّي
 يا رَبَّنَا افْتَحْ بَيْنَنَا بِكرامةٍ
 يا مَنْ أرى أبوابه مَفْتُوحَةً
 ومُحَقَّرًا بالسَّبِّ والإِزْراءِ
 كَلْبٌ فيَعْلِي قلبه لِعُواءِ
 فالآنَ مَنْ يَحْمِيه من أَفْداءِ
 حَفَّ قَهْرَ رَبِّ قَادِرِ مَوْلائِي
 أَنِّي مِنَ الخَفَّاشِ خَسِرُ ذُكاءِ
 أَنَسيتَ يَوْمَ الطَّعنةِ النَّجلاءِ
 يَلْقِيكَ حُبُّ النَفْسِ في الحَوَقاءِ
 حَفَّ أن تَرَلَّكَ عَدُوُّ ذِي عَدَواءِ
 وَمِنَ السُّمومِ عَدَاوَةُ الصِّلحاءِ
 إنَّ لَمْ تَمُتْ بِالخِزْيِ يا ابنَ بَغاءِ
 حَتَّى يَجِيءَ النَّاسَ تَحْتَ لَوائِي
 يا مَنْ يَرى قَلْبِي وُلْبًا لِحائِي
 لِلسَّائِلِينَ فلا تَرُدُّ دَعائِي

آمين

اليوم قضينا ما كان علينا من التبليغات، وعصمنا نفسنا من مآثم ترك الواجبات، وحن أن نصرف الوجه عن هذه المباحثات، إلا ما ينفي لبس السائلين والسائلات، وأزمعنا أن لا نخاطب العلماء بعد هذه التوضيحات، ولو سبونا كما أروا من قبل من العادات، وما غلظنا عليهم إلا للتنبيهات، وإنما الأعمال بالنيات. فالآن نودّعهم بدموع جارية من الحسرات، وعيون غريقة في سيل العبرات، وهذه منا خاتمة المخاطبات.

تَمَّتْ